الإسلام بين العلم والمدنيّة

(١)

الإمام محمد عبده

على سبيل التقديم...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كاضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

الاسـلام والمسـلمون

الانسان عالم صناعي

« ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد » .

خلق الله الانسان عالما صناعيا ، ويسر له سبيل العمل لنفسه ، وهداه للابداع والاختراع ، وقدر له الرزق من صنع يديه ، بل جعله ركن وجوده ودعامة بقائه ، فهو على جميع أحواله من ضيق وسعة ، وخشونة ورفاهية ، وبيد وحضارة صنيعة أعماله ، وأقواته من معالجة الأرض بالزراعة ، أو قيامه على الماشية ، وسرابيله وما يقيه الحر والبرد والوجى من عمل يديه نسجا أو خصفا ، واكتانه ومساكنه ليست ألا مظاهر تقديره وتفكيره ، وجميع ما يتنعمه فيه من دواعي ترفه ونعيمه انما هي صور أعماله ومجالي أفكاره ، ولو نفض يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان وبسط كفيه للطبيعة ، ليستجديها نفسا من حياة لشحت به عليه بل دفعته الى هاوية العدم ، وهو في صنعه وابداعه محتاج الى أستاذ يثقفه وهاد يرشده ، فكما يعمل لتوفير لوازم معيشته وحاجات حياته يعمل كيف يعمل وليقتدر أن يعمل ، فصنعته أيضا من صنعه، فهو في جميع شئونه الحيوية عالم صناعي كأنه منفصل عن الطبيعة بعيد من آثارها ، حاجته اليها كحاجة العامل لآلة العمل . هذا هو الانسان في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه .

دعه في هذه الحالة وخذ طريقا من النظر الى أحواله النفسية ، من الادراك والتعقل والاخلاص والملكات والانفعالات

الروحية ، تجده فيها أيضا عالما صناعيا ، شجاعته وجبنته ، جزعه وصبره ، كرمه وبخله ، شهامته ونذالته ، قسوته ولينه ، عفته وشرهه ، وما يشابهها من الكمالات والنقائص جميعا تابع لما يصادفه في ترسيته الاولى وما يودع في نفسه من أحوال الذين نشأ فيهم وتربى بينهم مرامي أفكاره ومناهج تعقله ومذاهب ميله ومطامح رغباته ونزوعه الى الأسرار الالهية أو ركونه الى البحث في الخوض الطبيعية وعنايته باكتشافه الحقيقة في كل شيء أو وقوفه عند بادىء الرأي فيه وكل ما يرتبط بالحركات الفكرية انما هي ودائع اختزنهسا لديه الآباء والأمهات والأقوام والعشائر والمخالطون ، أما هواء المولد والمربى ونوع المزاج وشكل الدماغ وتركيب البدن وسائر الغواشي الطبيعية فلا أثر لها في الأعراض النفسية والصفات الروحانية ، الا ما يكون في الاستعداد والقابلية ، على ضعف في ذلك الآثر فان التربية وما ينطبع في النفس من أحوال المعاشرين وافكار المثقفين تذهب به وكان لم يكن أودع في الطبع • نعم أن أفكارا تتجدد ، ومعقولات من أخرى تتولد ، وصفات تسمو ، وهمما تعلو ، حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين ويظن أن هذا من تصرف الطبيعة لا من آثار الاكتساب ، ولكن الحق فيه أنه ثمرة ما غرس ونتيجة ما كسب فهو مصنوع يتبع مصنوعا ، فالانسان في عقله وصفات روحه عالم صناعي •

هذا مما لا يرتاب فيه العقلاء ، ولكن هل تذكر ، مع هذا ، ان الأعمال البدنية ، انما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية ، وان الروح هي السلطان القاهر على البدن ؟ أظنك لا تحتاج فيه الى تذكير لانه مما لا يغرب عن الأذهان ، انما قبل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين ، ولا أظن منكرا يجحدها •

ان الدين وضع الهي ومعلمه والداعي اليه البشر ، تتلقاه العقول عن المبشرين والمنذرين فهو منسوب لمن لم يختصهم الله

بالوحي ، ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين وهو عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب ويرسخ في الأفئدة وتصطبغ النفوس بعقائده وما يتبعهـا من الملكات والعـادات وتتمرن الأبدان على ما ينشأ عنه من الأعمال عظيمها وحقيرها ، فله السلطة على الأفكار وما يطاوعها من العزائم والارادات ، فهو سلطان الروح ومرشـدها الى ما تدبر به بدنها ، وكأنما الانسان في نشأته لوح صقيل وأول ما يخط فيه رسم الدين ، ثم ينبعث الى سائـر الأعمال بدعوتـه وارشاده وما يطرأ على النفوس من غيره فانما هو نادر شاذ حتى الصفات بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندمال .

وبعد فموضوع الديانة المسيحية والديانـة الاسلامية بحث طويل الذيل ، وانما نأتي به على اجمال ينبئك عن تفصيل .

الديانة المسيحية

ان الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والمياسرة في كل شيء ، وجاءت برفـع القصاص واطـراح الملك والسلطة ونبـذ الدنيـا وبهرجها ، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها ، وترك أموال السـلاطين للسلاطين ، والابتعـاد عن المنازعات الشخصية والجنسية بل والدينية ، ومن وصايا الانجيل : « من ضربك على خدك الأيمن فادر له الأيسر » . ومن أخباره أن الملوك انما ولايتهم على الأجساد ، وهي فانية ، والولاية الحقيقية الباقية على الأرواح وهي لله وحـده . فمن يقف على مباني هذه الديانـة ويلاحظ ما قلنا من أن الدين صاحب الشوكة العظمى على الأفكار مع ملاحظة أن لكل خيال أثرا في الارادة يتبعه حركة في البدن على حسبه ، يعجب كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي المنتسبين في عقائدهم اليه ، فهم يتسابقون في المفاخرة والمباهاة بزينـة هذه الحياة ورفـه العيش فيها ، ولا يقفون عند حـد في استيفاء لذاتها ، ويسارعون في افتتاح الممالك والتغلب على الأقطار

الشائعة ويخترعون كل يوم فنا جديدا من فنون الحرب ، ويبدعون في اختراع الآلات الحربية القاتلة ، ويستعملها بعضهم في بعض ، ويصولون بهـا على غيرهم ، ويبالغون في ترتيب الجيوش وتدبير سوقها في ميادين القتال ، ويصرفون عقولهم في احكام نظامها حتى وصلوا غاية صار بها الفن العسكري من أوسع الفنون وأصعبها ، وان أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية بحفظ أملاكهم فضلا عن الالتفات الى طلب غيرها •

الديانة الاسلامية

أما الديانة الاسلامية فقد وضع أساسها على طلب الغلبـة والشوكة والافتتاح والعزة ورفض كل قانون يخالف شريعتها ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها • فالناظر في أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل ، يحكم حكما لا ريبة فيه بأن المعتقدين بها لابد أن يكونوا أول ملة حربية في العـالم ، وان يسبقوا جميـع الملل الى اختراع الآلات القاتلة واتقان العلوم العسكرية والتبحر فيما يلزمهـا من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجر الأثقال والهندسة وغيرها • ومن تامل في آية : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » أيقن أن من صبغ بهذا الدين فقـد صبغ بحب الغلبـة وطلب كل وسيلة الى ما يسهل له سبيلها والسعي اليها بقـدر الطاقة البشريـة فضـلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه ، ومن لاحظ أن الشرع الاسلامي حرم المراهنة الا في السباقة والرماية انكشف مقدار رغبة الشارع في معرفة الفنون العسـكرية والتمرن عليهـا ، ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الأوقات اذ يراهم يتهاونون بالقوة ويتساهلون في طلب لوازمها وليست لهم داية بالبراعة في فنون القتال ، ولا في اختراع الآلات • حتى فاقتهم م سواهم فيما كان أول واجب عليهم • واضطروا لتقليدها فيما

يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات ، وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفيهم واستكانوا لها ورضخوا لأحكامها (١) ومن وازن بين الديانتين حسار فكره كيف اخترع مدفع الكروب والمترليوز وغيرهما بايدى أبناء الديانة الأولى قبل الثانية ؟ وكيف وجد بندقية مرتين فى ديار الأولين قبل وجودها عند الآخرين ؟ وكيف أحكمت الحصون ودرعت البواخر وأخذت مغالق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم دون أهل الغلبة والحرب ؟

لم لا يحار الحكيم وإن كان نطاسيا ، لم لا يقف الخبير البصير دون استكناه الحقيقة ؟ هل القرون الخالية والأحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين فى نفوس المستمسكين بعراهما ؟

هل نبذ كل دينه ؟

هل نبذ أهل كل دين عقائد دينهم من أجيال بعيدة ؟ هل اقتصر النصارى فى دينهم على الأخذ بشريعة موسى واقتفاء سيرة يوشع بن نون ؟ هل تخللت بعض ايات الانجيل من حكث يدرى ولا يدرى بين الخطب والمواعظ التى تتلى على منابر المسلمين ، أو ألقى شيء منها فى أمالى معلميهم وناشرى شريعتهم عندما يتربعون فى محافل دروسهم ؟ هل تبدلت سنة الله فى الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ هل استبدت الأبدان فيهما على الأرواح أو وجد للأرواح دبير سوى الفكر والخيال أو انفلتت الأفكار من سلطة الدين ، أو تقاضت النفوس عن الانتعاش بنقشته ، وهو أول حاكم

(١) هذا وصف دقيق صحيح لما كانت عليه حالة العرب جميعا فى عصر الأستاذ الامام محمد عبده ، ولكن الآية قد تبدلت فى عهد الثورة الحاضر الذى عنيت فيه الجمهورية العربية المتحدة خاصة ، والأمة العربية عامة باتباع الآية الكريمة : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » الى جانب النهوض بالتصنيع ، ومن أهم وأعظم مظاهره مصانع الأسلحة والذخيرة . ولكن الدعوة الى التسليح ما زالت قائمة فى كل وقت لهذا الجيل ، وللأجيال القادمة ، ولكل أمة عربية واسلامية فى الشرق والغرب .

عليها واقوى مؤثر فيها ؟ هل تتخلف العلل عن معلولاتها ؟ هل تنقطع النسب بين الأسباب ومسبباتها ؟ ماذا عساه أن يرشد العقول الى كشف المساتير وحل المعميات ؟ أينسب هذا الى اختلاف الأجناس ــ وكثير من أبناء الملتين يرجعون الى أصول واحدة ويتقاربون في الأنساب الدانية ــ أينسب هذا الى اختلاف الأقطار ، وكثير من القبيلين يتشابهون في طبائع البلدان ويتجاورون في مواقع الأمكنة ؟ ألم يصدر من المسلمين وهم في شبيبة دينهم أعمال بهرت الأبصار وأدهشت الألباب ؟ ألم يكن منهم مثل فارس والعرب والترك الذين دوخوا الممالك واستووا على كرسي السيادة فيها · كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية (١) أشباه المدافع فزع لها المسيحيون وغابوا عن معرفة أسبابها·ذكر ملكام سرجم (انكليزى) في تاريخ الفرس ان محمودا الغزنوى (٢) كان يحارب وثنيي الهند بالمدافع ، وكانت هي السبب في انهزامهم بين يديه سنة (٤٠٠) من الهجرة ، وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئا منها · فأى عون من الدهر أخذ بأيدى الملة المسيحية فقدمها الى ما لم يكن في قواعد دينها ؟ وأية صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخرتهم عن تعاطى الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم·مقام للحيرة وموضع للعجب ، ويظن أن لابد لهذا التخالف من سبب ، نعم وتفصيله يطول ولكن نجمل على ما شرطنا :

ان الدين المسيحى انما امتد ظله وعمت دعوته في الممالك الأوربية من أبناء الرومانيين ، وهم على عقائد وآداب وملكات وعادات

---

(١) الآلات النارية ، هي التي عرفت أيام العرب باسم « النار الاغريقية » ولا يعرف بالضبط من هم مخترعوها · وهى أقرب ما تكون ما عرف أيام الحرب العالمية الثانية باسم « سلة مولوتوف » غير أن الفرق بينهما أن الأولى كانت تحمل مواد ملتهبة وتقذف بما يشبه المقلاع على العدو ، فتشتعل النيران حيث تقع · أما سلة مولوتوف فتحمل عدة قنابل تنفجر في عدة مواضع بدلا من موضع واحد ·

(٢) السلطان محمود الغزنوى من أشهر رجال التاريخ ، وكان مسلما متدينا ، فتح غزنه « أفغانستان » ودخل الهند غازيا ، وأدخل فيها الدين الاسلامي ·

ورثوها عن أديانهم السابقة وعلومهم وشرائعهم الأولى ، وجاء الدين المسيحي اليهم مسالما لعوائدهم ومذاهب عقولهم ، وداخلهم من طرق الاقناع ومسارقة الخواطر لا من مطارق البأس والقوة فكان كالطراز على مطارفهم ، ولم يسلبهم ما ورثوه عن أسلافهم ، ومع هذا فان صحف الانجيل الداعية للسلامة والسلم لم تكن كسابق العهد مما يتناوله الكافة من النـاس ، بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين ، ثم ان الأحبار الرومانيين (١) لما أقاموا أنفسهم فى منصب التشريع وسنوا محاربة الصليب ودعوا اليها دعوة الدين التحمت آثارها في النفوس بالعقائد الدينية وجرت منها مجرى الأصـــول ، ولحقـــها على الأثر تزعزع عقـــائد المســيحية فى أوربا ، وافترقوا شيعا وذهبوا مذاهب تنازع الدين فى سلطته ، وعاد وميض ما أودعه أجدادهم فى جراثيم وجودهم ضراما ، وتوسعوا فى فنون كثيرة ، وانفسح لهم مجـال الفكر فيها ، وكانت براعتهم فى الفن العسكرى واختراع آلات الحرب والدفاع مساوقة لبراعتهم فى سائر الفنون ·

اما المسلمون فبعد أن نالوا فى نشأة دينهم ما نالوا ، وأخذوا من كل كمال حـربى حظا ، وضربوا فى كل فخار عسكرى بسهم ، بل تقدموا سائر الملل فى فنون المقارعة وعلوم النزال والمكافحة ، ظهر فيهم أقوام بلبـــاس الدين وأبدعوا فيه ، وخلطوا بأصـــوله ما ليس منها ، فانتشرت بينهم قواعد الجبر ، وضربت فى الأذهان حتى اخترقتها ، وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال ، هذا الى ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع وما أحدثه السـوفسطائيون الذين انكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق ، وما وضعه كذبة النقل من الأحاديث ،

---

(١) لقد عارض الاباطرة الرومان قيام الدين المسيحى فى بداية الأمر لأنهم كانوا يعتقدون أن فى هذا انقاصا من سلطتهم الزمنية فضلا عن الدينية ·

ينسبونهــــا الى صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ويثبتونها فى الكتب ، وفيها السم القاتل لروح الغيرة ، وأن ما يلصــق منهـا بالعقول يوجب ضعفا فى الهمم وفتورا فى العزائم ، وتحقيق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة ، خصوصا بعد حصول النقص فى التعليم والتقصير فى ارشاد الكافة الى أصول دينهم الحقة ، ومبانيه الثابتة التى دعا اليها النبى وأصــحابه ، فلم تكن دراســـة الدين على طريقهـــا القويم الا منحصرة فى دوائر مخصـوصة ، وبين فئة ضعيفة • لعل هذا هو العلة فى وقوفهم ، بل الموجب لتقهقرهم ، وهو الذى نعانى من عنائه اليوم مما نسأل الله السلامة منه •

الا أن هذه العوارض التى غشيت الدين وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته ، وان كان حجابها كثيفا ، لكن بينها وبين الاعتقـادات الصحيحة التى لم يحـرموها بالمرة تدافـع دائم وتغالب لا ينقطع ، والمنازعة بين الحق والباطل كالمدافعة بين المرض وقوة المزاج ، وحيث أن الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم ولا يزال وميض برقه يلوح فى أفئـدتهم بين تلك الغيوم العارضة فلابـد يوما أن يسطع ضياؤها وينقشع سحاب الأغيان ، وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتـابهم المنزل ، وأمامهم الحق ، وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم ، والدفاع عن ولايتهم ، ومغالبة المعتدين ، وطلب المنعة من كل سبيل ، ولا يعين لها وجها ، ولا يخصص لها طريقا ، فاننا لا نرتاب فى عودتهم الى مثل نشأتهم ونهوضهم الى مقاضاة الزمان ما سلب منهم ، فيتقدمون على من سواهم فى فنون الملاحمة والمنازلة والمصاولة حفظا لحقوقهم وضنا بانفسهم عن الذل وملتهم عن الضياع والى الله تصير الأمور •

المسألة الاسلامية

بين هانوتو والامام

كتب مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا فى جريدة « الجرنال » الباريسية مقالا عن الاسلام والمسألة الاسلامية نشر فى جريدة المؤيد . فرد عليه الأستاذ الامام بمقال بليغ الحجة فى كل ما جاء به .

مقال مسيو هانوتو

وزير خارجية فرنسا

أصبحنا اليوم ازاء الاسلام والمسألة الاسلامية ٠

اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الأفريقية بسرعة لا تجارى حاملين فى حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين « يونان الشرق » ثم تراموا بها على أوربا ، ولكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها الى آسيا بل أقرب فى الوصلة الى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم الا وهى المدنية الآرية المسيحية ، ولذلك اضطروا الى الوقوف عند الحد الذى اليه وصلوا ، وأكرهوا على الرجوع الى أفريقية حيث ثبتت أقدامهم أحقابا متعاقبة ، ولكن كان لا يزال الهلال ينتهى طرفاه من جهة مدينة (القسطنطينية) ومن جهة أخرى ببلدة (فاس) فى المغرب الأقصى معانقا بذلك الغرب كله ٠

فى تلك البقعة الأفريقية التى أصبحت مقر ملك الاسلام جاءت الدولة الفرنسية لمباغتته ٠ جاء القديس (لويس) (١) الذى ينتمى الى أسبانيا بوالدته ليضرم نيران القتال فى مصر وتونس ، وتلاه لويس الرابع عشر فى تهديده بالأيالات الأفريقية الاسلامية ، وعاود هذا الخاطر (نابوليون الأول) فلم يوفق الى تحقيقه الفرنسيون الا فى القرن التاسع عشر حيث أخذوا على دولة الاسلام التى كانت

---

(١) القديس لويس هو لويس التاسع ملك فرنسا المتدين ، وهو قائد الحملة الصليبية التاسعة التى هزمت فى المنصورة عام ١٢٥٠ ٠ وأسر هذا القديس نفسه فى دار ابن لقمان ٠

لا تنى فى متابعة الغارات على القارة الأوربية ، فاصبحت الجزائر فى أيديهم منـذ ٧٠ عاما (١٨٣٠) ، وكذلك القطر التونسى منـذ عشرين عاما (١٩١٢) .

قد وصلت طلائع قوافنا الآن الى أصقاع من الصحراء تنتهى اليها كثبانها الرملية ، فعظم اندهاش الباقين من خصومنا وتزايد ذهولهم لأنهم بعد اندفاعهم شيئا فشيئا فى الفيافى وبطن الخبوت، وظنهم أنهم صاروا فى أمنع موئل ، شعروا بأنفسهم وقد حلق عليهم الأوربيون من جميع الجهات وكانت القبائل الواردة اليهم من (السنغال) أخبرتهم بأن الأوربيين امتلكوها وتقدموا منهم الى (باقل) (وباماكوا) (وسيجوسيكورو) وتوغلوا فى جهات أخرى حتى وصلوا الى (النيجر) وبحيرة (شاد) وان مدينة (تمبكتو) المقدسة قد سقطت فى أيديهم منذ أعوام ، واكد لهم هذه الاخبار أيضا رسلهم الذين يخترقون افريقية الوسطى ويجوبون نواحيها بما ذكروه لهم من أن جهات (صانما) و (تجاوندره) قد وطأتها أقدام الحاملين للعلم المثلث الألوان الذين يصعدون الأنهار لتنظيم البلاد وترقية شئونها ، وان وابوراتهم فى (الأصل بابور على التحريف الشائع عند الأمم الشرقية من تسمية البواخر النهرية أو البحرية بالبابورات بدلا من البواخر) تشق عباب نهرى (الكونغو) و (الشارى) (١) وتنعكس على سطحها صورة الدخان الأسود المسترسل خلفهما ، عندئذ كان يطرق الأذان صوت اليائسين وقد جلسوا أمام دورهم واضعين رءوسهم بين افخاذهم لكثرة الغم والكدر ، وهم يدعون الله ويكررون قولهم عن (فرنسا) يشبهونها بسرادق كبير اذا حاول الانسان قلعه فلا يزال له السمو عليه ، ويختمون كلامهم بقولهم (قد كان هذا قدرا مقدورا) .

---

(١) نهر شارى هو الذى يصب فى بحيرة شاد فى وسط غرب افريقيا .

اذن فقد صارت (فرنسا) بكل مكان فى صلة مع الاسلام بل صارت فى صدر الاسلام وكبده حيث فتحت أراضيه واخضعت لسطوتها شعوبه وقامت تجاهه مقام رؤسائه الأولين ، وهى تدير اليوم شئونه ، وتجبى ضرائبه ، وتحشد شبانه لخدمة الجندية ، وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها فى مواقف الطعان ومواطن القتال . تلك المملكة الفسيحة الأرجاء التى أنشأتها فى باطن القارة الأفريقية هى الوارثة لما أبقته الدول السابقة والأمم البائدة من (قرطاجيين) (ورومانيين) و « عرب » من آثار المدنية التى كانت القارة الأفريقية منبتا لثمارها اليانعة .

خطـر الاســلام

ان شعبا جمهورى المبادىء يبلغ عدد أبنائه أربعين مليونا ، لامرشد له الا نفسه ، لا عائـلات ملوكية فيه تتنازعه الحـكم ، ولا رؤساء يتناولون الرئاسة بطريق الوراثة ، هو الذى تقلد زمام ادارة شعب آخر لا يلبث أن ينمو حتى يساوى ضعف عدده وهو ذلك الشعب المنتشر فى الأرجـاء الفسيحة والأصـقاع المجهولة ، والمتبع لتقاليد وعادات غير التى نعنو لها ونحترمها ، هو الشعب الاسلامى السامى الأصل الذى يحمل اليه الشعب الآرى المسيحى الجمهورى الآن ملح وروح المدنية . نعم ان ظروف وشروط هذه المعضلة نادرة ، ولكن ليس على الشعب الغالب أن يحاول جهـــده لمعرفتها والاطلاع عليها .

ليس الاسلام فينا فقط بل هو خارج عنا أيضا قريب منا فى (مراكش) تلك البلاد الخفية الأسرار التى يشبه وجودها الحاضر مقدور الأبد فى الغموض والاشتباه ــ قـريب منا فى (طرابلس الغرب) التى تتم بها المواصلات الأخيرة بين مركز الاسلام فى البحر الأبيض المتوسط ، وبين الطوائف الاسلاميـة فى بـاطن القـارة الأفريقية ــ قريب منا فى (مصر) حيث تصادمت (الدولة البريطانية)

فصادمتها اياها في الأقطار الهندية وهو موجود وشائع في (آسيا) حيث لا يزال قائمـا في (بيت المقدس) وناشرا أعلامه على مهـد الانسانية ، ويحسب انصاره وأشياعه في قارات الأرض القديمة بالملايين ، وقد انبعثت شعبة منه في بلاد (الصين) فانتشر فيها انتشارا هائـلا حتى ذهب البعض الى القول بأن العشرين مليونـا المسلمين الموجودين في الصين لا يلبسون أن يصيروا مائة مليون فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء (لساكيامونى) ، وليس هذا بالأمر الغريب فانه لا يوجد مكان على سطـح المعمورة الا واجتاز الاسلام فيه حدوده منتشرا في الآفاق ، فهو الدين الوحيد الذى أمكن انتحال

الناس زمرا وأفواجـا ، وهو الدين الوحيد الذى تفوق شدة الميل الى التدين به كل ميل الى اعتناق دين سواه ، ففى البقاع الأفريقية ترى المرابطين وقد أفرغوا على أبدانهم الحلل البيضاء يحملون الى الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم من كل شعار ، قواعد الحياة ومبـادىء السلوك في هذه الدنيـا ، كما أن أمثالهم في القـارة الآسيويـة ينشرون بين الشعوب الصفـر الألوان قواعـد الدين الاسلامى ، ثم هو ، أى هذا الدين ، قائم الدعائم ثابت الأركان في أوربا عينها ، أعنى في الآستانـة العليـة حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع ، الذى يحكم منه على البحار الشرقية ، ويفصـل الدول العربية بعضها عن بعض شطرين ٠

في باحات قصر يلدز ترى العلمـاء والدراويش وقد تدثروا بثياب الصـوف ، وتعمموا بالعمائم الكبيرة ، جالسين على الأرائك بجانب سفراء الدول ٠ هم هناك يمثلون في الخاطر أشخاص ألف ليلة وليلة لا يتحركون من مقاعـدهم ، ينبسون بكلمات تطابق تحريك أيديهم حبات السبح ، منتظرين مجىء دورهم في المقابلات لعـرض طلب أو توجيـه لوم ٠ وكل المسلمين ممن يقيمـون في

(الاستانة) أو في (مراكش) ، في أرجاء آسيا أو أصقاع أفريقية ، من بدو كانوا أو حضر ، واقفين في أماكنهم أو سارين مع القوافل ، يركعون مع الراكعين اذا حانت الصلاة ، يتوضئون أو يتيممون بالتراب ، مولين وجوههم جميعا شطر الكعبة ، وسواء منهم الذين يلبسون الثياب الواسعة ، أو يتزيون بالسترة الاسلامبولية ، والذين يلبسون الطربوش أو العمائم على رءوسهم ، والذين يضعون السيف واليطقان في نطاقهم ، أو يتلقون العلوم في مدرسة برلين الجامعة ، أو يدرسون علوم السياسة في باريس ، فانهم يولون وجوههم شطر جهة واحدة ، هي الأرض المقدسة ، هي الأرض التي تكتنفها الصحراء ، هي الأرض التي عاش فيها محمد ، هي الأرض التي تتضمن جسمه المبارك ، في قبر لا يجسر أحد على الوصول اليه الا مغطى الوجه حياء وهيبة ، هي الأرض التي جاء منها الآباء ويعودإليها الأبناء بحركة مستمرة ، هي الحج الأبدي الى بيت الله الحرام ، وجميع المسلمين عن بكرة أبيهم يرنون بطرفهم الى هذا المكان المقدس ، ويمدون اليه أعناقهم ولا يجدون لذة في الحياة الا بأمل العودة اليه ، ومن مات منهم ولم يكن أدى فريضة الحج مات على أسف وحسرة . وخلاصة القول ان جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة واحدة ، بها يدبرون أعمالهم ويوجهون أفكارهم الى الوجهة التي يبتغونها ، وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذي تتصل به أشياء تتحرك بحركته وتسكن بسكونه ، بل هي القطب الذي تنتهي اليه قوة المغناطيسية . ومتى اقتربوا من الكعبة — من البيت الحرام — من بئر زمزم الذي ينبع منه الماء المقدس — من الحجر الأسود المحاط باطار من فضة — من الركن الذي يقولون عنه أنه سرة العالم ، وحققوا بأنفسهم أمنيتهم العزيزة التي استحثتهم على مبارحة بلادهم في أقصى مدى من العالم للفوز بجوار الخالق في بيته الحرام — اشتعلت جذوة الحمية الدينية في أفئدتهم ، فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفا وتقدمهم الامام مستفتحا

العبـادة بقوله : « باسم الله » فيعم السكون والسكوت ، وينشران أجنحتهما على عشرات الألوف من المصلين في تلك الصفوف ، ويملأ الخشوع قلوبهم ، ثم يقولون بصـــوت واحد « الله أكبر » ثم تعنو جباههم بعد ذلك قائلين : « الله أكبر » بصوت خاشع يمثل معنى العبـادة •

ولا تظنوا أن هذا الاسلام الخارجي الذي تجمعه جامعة فكر واحد غريب عن اسلامنا ولا علاقة له به ، لأنه وان كانت البلاد التي تحكمها شعوب مسيحية ليست في الحقيقة بدار سلام وانما هي « دار حرب » (١) فانها لاتزال عزيزة وموقرة في قلب كل مسلم صحيح الايمان • والغضب لا يزال يحوم حول قلوبهم كما تحوم الأسد حول قفص حبست فيه صغارها ، وربما كانت قضبان هذا القفص ليست متقاربـة ولا بدرجة من المتانـة تمنعها عن الدخول اليهم من بينها •

ترى في قرانا وبلداننا درويشـــا فقيرا شاحب اللون مدثرا بارديتـــه البيضاء المقلمة بخطوط ســـوداء يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه ، لا يلويـه عن ذلك شيء ــ هذا الدرويش الذي ينتقل من خيمــة الى خيمـة ، ومن قرية الى قرية ، راويـا حوادث الأقطاب والأولياء من مشايخ الاسلام ، انما يبذر في القلوب حيثما حل وأينما توجه بذور الحقد والضغينة علينا •

ان العالم الاسلامي منقسم الى طوائف وطرائق لا عداد لها ، ينخرط في سلكها الألوف من رعايانا المسلمين ولكن ليس لهـا في الغالب مراكز ولا زوايا بالأرض الداخلة في دائرة نفوذنا ، وغاية الأمر أن العاملـين في هذه الطوائف والمـذاهب الكثيرة يخترقون

(١) كان عند المسلمين داران: دار السلام ودار الحرب ، ويقصدون بالأخيرة مناطق سكنى العدو المتربص على حدود الاسلام • أما مدن الحدود فتسمى بالثغور •

بلا انقطاع ولا توان مستعمراتنـا الافريقيـة ، فيستقبلهم أهلوها بالترحاب ، ويحسنون وفادتهم ، ويكرمون مثواهم ، حتى ان الفقير منهم لا يرى فى اكرامه له أقل من أن ينحـر له شاة ، هذا عـدا ما يجمعه له من صدقات ذوى البر والاحسان ، أو من المرتبات المالية السنوية التى يبلغ ما يدفعه أهالى الجزائر وحدهم منها ثمانية ملايين من الفرنكات كل عام ، وهذا مما يستوجب العجب والدهشة لان مقدار ما نجبيه من الضرائب كل سنة من أهالى الجزائر لا يتجاوز ضعف هذا المبلغ ·

ومن بين تلك الطرائق والطوائف ما يخلد أعضاؤه الى السكون، وربما كانت علاقتهم مع رجـال حكومتنـــا فى الجزائر وتونس على أحسن ما يرام · وما ذلك الا لأن الرابطة التى تربط بعضهم ببعض قد اعتراها الوهن ، ولأن الفوضى التى أصابت الاسلام الافريقى قد أخذت نصيبها منهم ، ولكن توجد طوائف غيرها بلغت شدة العصبية منها مبلغا عظيما ، لانها مؤسسة على مبدأ كفاح غير المؤمنين ، وعلى كراهة المدنيـــة الحاضرة ، وقد أسس الشيخ السنوسى فى جهة ليست بعيدة عن الأصقاع التى تلى أملاكنا فى الجزائر مذهبا خطيرا له أشياع وأنصار ، ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التى كان قائمة بها هيكل الاله آمون (١) وقد هاجر أولاده الى (كوفرة) · ومن مذهبهم التشديـد فى رعاية القواعـد الدينية وقد لبثوا زمنا لا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية بسبب ما بينها وبين الدول المسيحية من العلاقات ، ولكن يظهر أن أخلاقهم الشديدة قد تلطفت فتقربوا أخيرا من الدولة العلية · غير ان هذا

---

(١) لعله يقصد به واحة سيوة · ومن المعروف ان معبد الاله أمون كان يقع فى هذه الواحة · ولا يغيب عن البال أن الاسكندر الأكبر المقدونى قد زار هذه الواحدة ، ودخل حرم هذا المعبد فيها حيث أخذ من الهه أمون تفويضا بحكم العالم · وقد ذكر هذا المؤرخ « · تارن فى كتابه بعنوان « الاسكندر الأكبر
"Alexander The Great

لم يمنعهم من طرح حبائل الدسائس التي أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها في افريقية الجنوبية ، ولم يكن الأمر مقصورا على وسط القارة الأفريقية ، فانه توجد بالاستانه نفسها وبالشام وبلاد العرب ومراكش عصابة خفية ومؤامرة سرية تحيط بنا اطرافها وتضغط علينا من قرب ويخشى أنها تفترسنا اذا أغمضنا الطرف ٠

كنا نرى من زمن حديث رعايانا الوطنيين في الجزائر ينقادون لأوامر سرية ، تناقلوها بالأفواه ، وكانت تقضى عليهم بتأليف الزمر والأفواج منهم لمهاجرة أوطانهم ، والذهاب الى آسيا الصغرى حيث الأمن المرجو ٠

يؤخذ مما تقدم أن جراثيم الخطر لا تزال موجودة في ثنيات الفتوح ، وطى أفكار المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التي حاقت بهم ، ولكن لم تثبط هممهم ٠ نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يديرون هذه المقاومة ، ولكن رابطة الاخاء الجامعة لأفراد العالم الاسلامي بأسره كافلة بالرئاسة ، ففي مسألة علائقنا مع الاسلام تجد المسألة الاسلامية والمسألة الدينيـة والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال والارتباط بعضها ببعض ، وهذا يجعل حلها صعبا ومتعذرا كما سنبينه ٠

المسائل الأساسية في كل دين هي التي ترتبط بالقدر والمغفرة والحساب ، وهي كلمات ثلاث مصبوغة بصبغة دينيـة ، تلقى في النفس الاعتقاد بوعورة المسلك في تفهمها ، مع أنها من الأمور التي ينبغي الوقوف عليها والعلم بها مهما صعب منالها وتعذر مرامها ٠ ان الدين هو الوسيلة التي تمهد للانسان طريق الوصول الى الحضرة الالهية أو هو بعبارة أخـرى الواسطة في وقوف المخلوق بين يدى الخالق ٠ اذا تقرر ذلك ، فهل الخالق بقدرته المطلقة يودع في نفس المخلوق استعدادا للعمل بمقتضى ارادته السرمدية بحيث لا يحيد عما تأمره به هذه الارادة ، أم للانسان متى تم خلقه ارادة خاصـة

يعمل بحسبها واختيار مستقل لا يستمد من اختيار اسمى منه ؟ وهل للانسان الذى خلقه الله وسواه ارادة مطلقة من نفسه وتصرف مطلق فى ذاته ، أم ترجع جميع أعماله من خير وشر الى القدرة الربانية القابضة على زمام الكون والمسببة لوجوده فيه ؟

فى دائرة هذا البحث تنحصر الخلافات الدينية والفلسفية التى لم يوفق دين من الأديان ولا مذهب فلسفى الى حسمها بكيفية يقتنع بها الادراك ويرضاها العقل ، مع أن البحث فيها لاصابة هذا الغرض السامى لم يكن بالأمر الحديث ، اذ طالما بحث فيها فلاسفة الأقدمين فلم يجدوا لها حلا ، وكان حظهم منها كحظ فلاسفة وعلماء المتأخرين ٠

وغاية ما عرف منذ الأعصر السالفة الى الآن انه وجد مذهبا تشاطرا فيما بينهما العقائد البشرية من تلك الوجهة المهمة ، فالأول منهما يقول بتناهى الربوبية فى العظمة والعلو ، وجعل الانسان فى حضيض الضعف ودرك الوهن ٠ ويذهب الثانى الى رفع مرتبة الانسان وتخويله حق القربى من الذات الالهية بما فطر عليه من ايمان وارادة ، وبما أتاه من أعمال صالحات وحسنات ٠

والنتيجة الطبيعية للاعتقاد بمذهب الفريق الأول هى تحريض الانسان على اغفال شئون نفسه ، وبث القنوط فى فؤاده ، وتثبيط همته ، وايهان عزيمته بينا تسوقه نتيجة الاعتقاد بمذهب الفريق الثانى الى ميدان الجلاد والعمل ، وتلقى به فى غمرات التنافس الحيوى ، ومن الأمثال على الفريقين البوذية الذين يدينون بدين يقضى عليهم بالتجرد ، اذ من قواعده ان الانسان والكون يفنيان فى الذات الالهية (١) وقدماء اليونان الذين يدينون بدين من قواعده تشبيه

(١) معنى كلمة « بوذا » هى كشف نقاب الجهل عن وجه هذا العالم ٠ وكان هدف المعلم بوذا الذى عرف بهذا الاسم هو خلاص النفس من متاعب الحياة وآلامها ٠ فقد جاء فى نص قديم ينسب اليه — الى بوذا — ويوضح حقيقة الرسالة التى كافح من اجلها ما يلى :

« لما كان المحيط الكبير ليس الا مذاقا واحدا هو الملح الاجاج ، كذلك الحال مع هذه العقيدة ليس لها الا مذاق واحد هو مذاق الخلاص والتحرر » ٠

الاله بالانسان فى أوصافه المادية ، يقضى عليهم هذا الدين بالعمل والحياة لاعتقادهم بأن الانسان أو « البطـل » يمكنه أن يعتبر فى عداد الآلهة بحسناته وخيراته ٠

وقد ظهرت على أطـلال العالم القديم بعد خمسمائـة عام من انقضائه ديانتان ، أحداهما ربانية والثانية بشرية تمثلانه فى ذينك المذهبين المتناقضين ولكن بتلطيف فى التنـاقض ٠ أما الأولى فهى الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة آثار الآريين والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية ، وان كانت مشتقة منه وغصنا من دوحته ، ومن خصائص هذه الديانة ترقية شأن الانسان بتقريبه من الحضرة الالهية ، على حين أن الديانـة الثانية وهى الاسلام المشوبـة بتأثير مذهب السامية تحط بالانسان الى أسفل الدرك ، وترفع الاله عنه فى علاء لا نهاية له ٠

هذان الميلان المختلفان يظهـران ظهورا واضحا فى الاعتقـاد الأساسى لكلتا الديانتين ، وهو أصل الالوهية ، أما المذهب المسيحى فيذهب فى هذا الأصل الى الثالوث أى ان الاله الأب وأوجد الابن واتصل الاثنان بصلة هى روح القدس ، وعليه فيكون يسوع المسيح الها وبشرا ــ هذا الثالوث السرى المشتقة أصوله من ضرورة وجود اله بشرى يمحـو ذنب الجنس البشرى ويفديه من الخطيئـة التى

ان شعبا جمهورى المبادىء يبلغ عدد ابنائه اربعين مليونا ،

اقترفها ، يرفضه المسلم الذى يعتقد بوحدانيـة الرب ، ويتمسك بهذا الاعتقاد تمسكا شديدا حيث يقول : « لا اله الا الله » ٠

غير ان ادراك المسيحيين من هذا القبيل هو أخف وأعلى وأجلب للثقة ، اذ هو يحملهم على اتيـان الأعمال التى تقربهم الى الله حيث الوسائط بينهم وبين ذاته الجليلة موصولة فى حين أن المسلمين تجعلهم ديانتهم كمن يهوى فى الفضـاء بحسب ناموس لا يتحول ولايتبدل ، ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات والاستغاثة

بالله الذى هو مستودع الآمال ولفظة الاسلام معناها « الاستسلام المطلق لارادة الله » •

ترى الديانتين أو بعبارة أخرى المدنيتين المسيحية والاسلامية احداهما بازاء الأخرى ، وتتصل الاثنتان بعضهما ببعض من حيث المنشأ العام لهما ، اذ هما مشتقتان من الأصول اليونانية السامية ومنها استمدتا جانبا من العقائد والمذاهب والآداب فهما اذن متداخلتان فى بعضهما من وجوه عدة ، ولكن مسافة الخلف بينهما شاسعة فى الحقيقة من حيث البحث فى القدرة الالهية والحرية البشرية •

رايان فى الاسلام

وقد كانت هذه المناقضات وتلك الأشباه تفرع الطريقين المختلفين للذين اتبعناهما فيما يربطنا من العلائق بالاسلام والمسلمين • قصر فريق منا بحثه وحكمه على ما شاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحى والاسلامى فرأى فى الاسلام العدو الألد والخصم الأشد • قال المسيو كيمون فى كتابه (باثولوجيا الاسلام) : « ان الديانة المحمدية جذام نشأ بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا بل هى مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولى يبعث الانسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منهما الا ليسفك الدماء ويدمن على معاقرة الخمور ويجمح فى القبائح ، وما قبر محمد فى مكة الا عمود كهربائى يبث الجنون فى رءوس المسلمين ويلجئهم الى الاتيان بمظاهر الهستيريا (الصرع) العامة والذهول العقلى وتكرار لفظة الله الى مالا نهاية ، والتعود على عادات تنقلب الى طباع أصلية ، ككراهة لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى والجنون الروحانى والليمانيا أو الماليخوليا وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور فى اللذات •• الخ الخ » •

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية

وحيوانات مفترسة (كالفهد والضبع كما يقول المسيو كيمون) وأن الواجب ابادة خمسهم (كما يقول أيضا) والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة وتدمير الكعبة ووضع ضريح محمد فى متحف اللوفر (وهذا أيضا قوله) ... وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشرى .. أليس كذلك ؟ ولكن قد برح عن خاطر الكاتب أنه يوجد نحو ١٣٠ مليون مسلم وأن من الجائز أن يهب هؤلاء « المجانين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم .

ويذهب غير أصحاب هذا الرأى الى أن الاسلام دين ومدنية يتصلان مع ديننا ومدنيتنا بعروة الاخاء والتصاحب ، وتطرف البعض منهم فاعتبروا الاسلام أرقى مبدأ وأسمى كعبا من الدين المسيحى . قال المسيو لوازون (القس ياسنت سابقا) معترفا ومقرا أن الاسلام هو الدين المسيحى مجسما ومحورا ، ونصح للفرنسيين الذين يلتمسون دينهم المفقود ان يستعينوا بالاسلام للعثور على ضالتهم المنشودة ويذهب قوم غير الذين سبقت الاشارة اليهم الى وجوب احترام الاسلام وتبجيله ، مستندين فى ذلك على ما دونه أحد مؤرخى الكنيسة الذى صار فيما بعد كردينالا حيث قال : « ان الاسلام قنطرة للأمم الأفريقية ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية الى ضفة المسيحية ، فليس الواجب والحالة هذه مقصورا على معاملة الاسلام بالتساهل والتسامح ، بل لابد من رعايته وتعضيده بأن نسعى فى توسيع نطاقه ، وترتيب الأرزاق على المساجد والمدارس ، وجعله رائدا لمدنية فرنسا وآلة تستعين به على فتوح البلاد » .

هذان هما الرأيان السائدان بما بينهما من درجات الاعتدال والتلطف والمسالمة ، ولكنهما وان افترقا ، متصل بعضهما ببعض وموجودان فى حيز واحد . وقد لوحظ كثيرا أن كل فرد من أفراد موظفينا أو وكلائنا أو أبنائنا المستعمرين قد صار بين المبدأين ، وسلك الخطة التى رسمها لنفسه تجاه المسلمين طبقا لميوله نحو

قطب من القطبين المتناقضين اللذين يوجد بأحدهما المتطرفون وبالآخر المتعصبون ، ولا وسط بينهما ٠

وتلك الميول المتعاكسة التي برزت من مكان الاعتقاد الى مجالى الفعل والتنفيذ ، هي التي أحدثت التناقض في أعمالنا الاجتماعية والسياسية والادارية ، وأدت الى الشكوك والريب ، ونقض ما أبرم، ما نقض ، الى غير ذلك مما جرت عليه حكومتنا ولا سيما في البلاد الأفريقية من عدم السير على وتيرة واحدة ٠ هذا الخلل ينمو شيئا فشيئا ويتضاعف خطره كل يوم ، اذا فكر الانسان في أنه لايصيب بسوئه بلاد الجزائر مع سكانها الوطنيين الذين يبلغ عددهم أربعة ملايين أو خمسة فقط ، بل يسرى على نصف قارة باكملها عديدة السكان ، وسيزداد ويتضاعف عددها بامتداد رواق الأمان على الأهالى وابطال التجارة في الرقيق ٠

المسألة خطيرة

فالمسألة اذن خطيرة جدا ولابد من الاعتماد على أمر واحد في حلها ، اذ لا يكفي للوصول الى هذا الحل تنميق عبارات وتسطير كلمات ، ولذلك خيرت أن أعرضها على محك الرأى العام ، مبينا أحكم الوسائل وأكثرها انطباقا على العقل والصواب ، للوصول الى نتيجة فعلية ، وموردا شيئا واحدا هو من الزم الأشياء لموضوع تلك المسألة واشدها ارتباطا به ٠

قد سبق لى وقتما تم تشكيل مملكتنا الأفريقية تشكيلا تاما ، ان سألت ــ ولازلت آكرر هذا السؤال ــ الحكومة أن تبحث بحثا علنيا في علاقاتنا مع الاسلام والمسلمين ، بمعرفة أناس خبيرين وعلماء عارفين ، ليتجلى هذا البحث عن الخطة التي يتحتم على الجميع اتباعها من حاكم منا ومحكوم عليه ٠

ان الراغب فى الاستعمار من أبناء بلادنا يصل الى الجزائر أو تونس أو السنغال ، فيجد نفسه فى اتصال مع العربى ، أو بعبارة أعم مع المسلم،اذ منه يشترى الأرض التى يريد استنباتها، ومنه يطلب اليد العاملة ومعه يدبر شئونه المعيشية ، فبالرغم عن هذا الاتصال وعن هذا الجوار والتلاصق تراهما يجهل أحدأهما الآخر ، وتنفرج مسافة هذا الجهل وتكون عواقبه أكثر خطرا ، اذا كانت العلاقة بين الأهالى وبين الموظف أو الحاكم أو القاضى أو الضابط أو غيرهم ، ممن هو منوط بالفصل فى خصوماتهم ، والقيام على شئونهم ، وتنفيذ قوانيننا بينهم ، وما أسوأ مغبة ذلك الجهل اذا كانت العلاقة بينهم وزارة مستعمراتنا أو رجال حكومتنا المركزية التى يُديرها أحد عشر وزيرا ، ربما لايوجد من بينهم سوى واحد أو اثنين انعما النظر فى خريطة الأنحاء الواسعة والاصقاع القصية التى عهد اليهم أمر ادارتها وتنظيمها .

مع أن الواجب متى رضينا باحتمال هذه المسئولية على عواتقنا ، وتلنا هذه السلطة أن نطيل البحث ونمعن النظر فى طرق استخدام هذه السلطة وأن نسأل الخبيرين والعارفين ، ونستفيد ممن شاهدوا واختبروا ونستمد من معلوماتهم ما نستعين به على تحرير متن سياسى وجيز يتضمن أصول ومبادىء علاقاتنا مع العالم الاسلامى . ان فريقا كبيرا من العلماء النظريين والعمليين من موظفين وضباط وأساتذة ومهندسين ومزارعين ومستعمرين قد كانوا ولا يزالون على اتصال بالمسلم . وجعلوا أحوال معيشته وطرق أعماله موضوع بحثهم ودراستهم . ولكن المسلمين أنفسهم قد ينبئوننا بما نجهله من بقية أخبارهم ، فهم اذا سئلوا أجابوا ، واذا أجابوا أفاضوا ، وقد كثرت الابحاث فى كل موضوع ، حتى فى الموضوعات الصريحة الواضحة ولم يفكر أحد فى الأمر الذى نحن بصدده ، وهو من أكثرها غموضا والتباسا ، فلماذا لا نستعين بالوسيلة التى

تفيض عينيا أنوار الحقيقة ، ونطرح من هذه الأنوار شعاعا على من يريدون اتباع الصراط المستقيم ، حتى اذا ما تم التحقيق والبحث حررنا بما ينبعث عنهما من الحقائق رسالة تـذاع على الألسنة ، وتتداولها أيدى الموظفين والمستعمرين ، وتنشر بين الطلاب فى المدارس فتنمحى بها آثار الأضاليل والترهات الكثيرة ، وتزول العقبات القائمة ، وتقال الأقدام من العثرات ، وتكون تلك الرسالة بمثابة قانون ثابت لفرنسا الاستعمارية يجرى على نهجها كل عامل، فيسم نفعه وتجتنى ثماره ،وربما كان سببا فى أن تعيش مدة نصف جيل على أساس اختيار الفرنسيين المستعمرين الذين انتشروا فى عرض البلاد وطولها لا رابطة بينهم ولا صلة ، يواصلون الصباح بالمساء فى الندم والحسرة من عواقب هفوة أو زلة سقطوا فيها • وكانت كلمة واحدة كافية لاقالتهم من عثرتهم واصلاح هفوتهم •

ولست أظن أحدا يرتاب فى نتائج ذلك التحقيق • وانما قبل ختام هذا الفصل أورد بعض اعتبارات أخالها ضرورية للوصول الى الغاية المقصودة من أقوم طرقها •

اشرت سابقا الى الصلة الأكيدة بين السياسة والدين فى العالم الاسلامى ، والمسلمون فى الأحوال الراهنة شاعرون شعورا قويا بايمانهم العام ، غير أن ادراكهم من حيث الجامعة السياسية ، وما كان يسميه القدماء بالرابطة المدنية أو الوطنية ، اذ ينحصر الوطن عندهم فى الاسلام ، فلا يجوز أن يتولاها الا من كان من عقيدتهم • ولم تدخل رءوسهم حتى الآن فكرة سوى هذه التى تمكنت من أفئدتهم ، وأخذت من قلوبهم أمنن مأخذ ، فكان ذلك سببا فى حدوث سوء التفاهم بين الحاكمين والمحكومين فى البلاد الاسلامية الخاضعة لحكومات مسيحية •

على أنه بالرغم من ذلك قد حصل انقلاب عظيم فى بلد من هذه البلاد فصلت فيه السلطة الدينية عن السلطة السياسية بدون

جلية ولا ضوضاء ، نريد به القطر التونسي الذي وضعت عليه الحماية التي مؤداها احترام النظام السابق على الفتح بصيانة القوانين والعادات من المساس ، والمحافظة على مركز الباي ، وقد بالغنا في ذلك بحيث تمكنا بواسطة ما أدخلناه من التعديلات الطفيفة شيئا فشيئا ، وأجريناه من المراقبة على شئون الأمور الادارية والسياسية من التداخل في شئون البلاد ، والقبض على أزمتها بدون شعور من أهلها ٠

تم هذا الانقلاب بسرعة ولين فلم يتألم منه الأهلون ولم تنخدش له احساساتهم ، اذ لبثت المساجد مغلقة في أوجه المسيحيين ، والأملاك الموقوفة محبوسة على السبل التي خصصت لها ، وتركت ازمة الأحكام بأيدي القواد والقضاة ، ولم يغير شيء من القوانين الأهلية الا برضا وتصديق من الأهالي ، وربما كان يطالب منهم ، وقام بأعمال هذا التغيير والتبديل وهذا النسخ والتحويل عدد قليل من الموظفين آكثرهم من التونسيين ٠ وجملة القول أن انقلابا عظيما حدث بدون أن يجر وراءه ألما أو توجعا أو شكوى ، بحيث وطدت الآن دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس ، وتسربت الأفكار الأوربية بين السكان بدون أن يتألم منها الايمان المحمدي ، واقترنت السلطة الفرنسية بالسلطة الوطنية اقترانا لم تغشه سحابة كدر ٠

اذن يوجد الآن بلد من بلاد الاسلام قد ارتخى بل انفصم الحبل بينه وبين البلاد الاسلامية الأخرى الشديدة الاتصال بعضها ببعض - اذن توجد أرض تنفلت شيئا فشيئا من مكة ومن الماضي الأسيوي ٠ أرض نشأت فيها نشأة جديدة ، أنبتت في قضائها وادارتها وعاداتها وأخلاقها ، أرض يصح أن تتخذ مثالا يقاس عليه ، الا وهي البلاد التونسية ٠

كانت هذه البلاد ميدان التنافس والجلاد اذ حكمت فيها قرطاجة ورومية وبيزنطية والعرب و « سان لويس » و « شارلكان » فاصبحت الآن مهبط المسالمة ومعهد التصالح والوئام ، ففيها الديانتان بل المدنيتان متلاصقتان بل متداخلتان ، حتى تأكدت نقط بينهما وانحسرت فرجة الخلاف وارتفعت الأحقاد من الصدور رغبة من الفريقين في التمتع بمزايا الأراضي الخصبة والسماء الصافية الاديم التي ينزل منها على القلوب برد وسلام يلطفانها ولعل الاطلال العديدة الشاهدة على ما تعاقب في الأقطار التونسية من المدنيات القديمة ، تندثر تماما ولم ينمح أثرها كي تهتز لاستقبالنا ويوصل بعضها ببعض ما انقطع من حلقات الدهر الماضي .

ان مسجد القيروان (١) الجامع شيدت عقوده على الأعمدة القديمة ، وبنيت كنيسة الكردينال لافيجري الكاتدرائية تحت أكمة (بيرسا) التي عبدت فيها تانيت . وخلاصة القول أن مزيجا من التاريخ يركب في هذه الأرض تحت رعاية فرنسا وانسانيتها ، ومن المحتمل أن تنبعث تلك الآثار من قبور الماضي فتعيش في خلال الجيل الذي نطرق الآن أبوابه .

مقال هانوتو الثاني

من المسلم أنه يتعذر على الرد في هذه الجريدة على جميع الرسائل التي ترد الي بشأن ما أنشره فيها من الفصول والمقالات ، ولذا اشكر جميع الذين راسلوني شكرا جزيلا ، وأرجوهم أن يعتقدوا ويثقوا بأن ما أشاروا به علي وأبانوه لي محفوظ في مخيلتي . ولا يبرح عن ذاكرتي ، وانني أجد في تبادل الأفكار على هذا المثال

(١) القيروان مدينة تونسية شهيرة بمسجدها . انشاها عقبة بن نافع عام ٦٧٠ م فصارت عاصمة افريقيا . وقد بلغت اوج عزها على أيام الملوك الأغالبة في القرن التاسع الميلادي . وكانت دارا للصناعة ومحطا للقوافل وسوقا للتجارة .

خير معوان وأحسن مشجع ، وبالرغم مما يخالجني من الميل الى عدم قصر البحث في نوع خاص من الموضوعات ، أرى أن لا مندوحة لي من العود الى بعض المناقشات التي أثار عجاجها الفصلان اللذان نشرتهما حديثا في مسألة الاسلام ، والحق يقال أنني أصبحت بسببهما كما يقال ، بين نارين فالمسيحيون أنحوا على بالتعنيف واللوم قائلين : انني تظاهرت بالميل للاسلام ، واتخذني المسلمون خصما لدودا لدينهم ، وهو ما يثبط همة الانسان عن اتباع خطة المسالمة والتوفيق ، لو لم يعرف من قديم الزمان أن الذين يتصدون الى بيان الحقائق بالتصور والتعقل انما يشبهون سندان الحداد تتلاقى عليه ضربات المطرقتين ٠

ويجب قبل الدخول في الموضوع أن أشير الى طريقة من الجدل : كان الجهل بلغتنا ، وهو في نظرى أكثر تأثيرا من سوء القصد ، سببا في أتباع بعض الجرائد الاسلامية لها وسيرها على سننها ، فان جريدة « المؤيد » التي تظهر في مصر القاهرة قد نشرت ترجمة أو بالاحرى خلاصة فاسدة من الفصلين اللذين كتبتهما على الاسلام ، ولعل القراء يذكرون أنني أوردت فيهما آراء كيمون التي أبداها في كتابه (باثولوجيا الاسلام) وان ايرادى لها كان على سبيل الحكاية والنقل ، اذ أشرت الى خطر شدتها ، وابنت العواقب الضارة التي يفضي اليها الجدال السياسي في الخواطر السريعة التأثر والانفعال ، ولكيلا يختلط على الذهن شيء من أقوال كيمون التي أوردتها ، وضعت في آخر كل عبارة من عباراته كلمتي (أنا أنقل) محصورتين بين قوسين دفعا للالتباس ومنعا للشك ٠

بالرغم من هذه الاحتياطات نسبت الي تلك الأفكار التي عمدت الى دحضها واظهار فسادها حتى أن أحد (١) كبار الأمة

---

(١) يشير الى الشيخ محمد عبده ٠ وسيأتي رده في الفصل القادم ٠

الدين الاسلامي كلف نفسه مئونة الاجابة فى جريدة المؤيد على أفكار ليست افكارى ، بل هى نقيض ما ذهبت الى تضييعه واستحسانه فى بحثى ، ولذلك أرى أن ذلك الامام العظيم صار فى بحثه أشبه بمن يدفع بابا مفتوحا من ذاته سواء قرأ ما سطرته فى الأصل الفرنسى أم وقف عليه من الترجمة . أما انه لم يفهم مرادى وأما أن الترجمة كانت فاسدة لم تتوافر فيها شروط الأمانة ، لذلك أناشده بذمته الطاهرة أن يوقف من يأتمرون بأمره ويصيخون لاقواله على حقيقة فكرتى التى كشفت النقاب عنها فى آخر مقالتى ، وكلها احترام واعتدال ومسالمة ، وتوفيق على احدى الجرائد العربية التى تنشر بمصر ، ولها شهرة فائقة فى جميع العالم الاسلامى ألا وهى جريدة « الأهرام » قد أتت بتلك الملاحظات أحسن مما أستطيع ايرادها به ، فان محررها (المسيو تقلا) الكاتب الشهير الذى يدير فى آن واحد جريدة « البيراميد الفرنسية » قد اقتفى أثر ملاحظات الامام فرد عليها نقطة نقطة ولم يبق لى بعد مناقشته التى روعيت فيها أساليب اللطف والحذق مجال للكلام ، أو شىء كثير من القول أضمه الى قوله . على أننى أستنتج من هذا الحادث عبرة تزداد قوتها فى نظرى كلما تقدمت فى طريق العمر ، وحبوت نحو الشيخوخة ، وهى أن منشأ المشاكل والصعوبات التى تقوم بين الناس هو سوء التفاهم والخطأ فى معرفتهم مقاصد بعضهم بعضا ، اذ كثيرا ما كان الغلط الناشىء من سوء تلاوة كلمة أو القصور عن ادراك معنى جملة ، أو فهم مغزى رأى من مرامى حيلة من حيل المناظرة ، سببا فى جر ما لا يحصى من المصائب بل سببا فى انشقاق قوم كانت تجمعهم لحمة الاتحاد ورابطة الجوار ، وكانوا الى الالتئام والاتفاق أقرب منهم الى الخلف والانشقاق .

ولو أمكن محو ما تراكم شيئا شيئا حول ما يقع بشأنه سوء التفاهم من العواقب الضارة والشدائد التى لا فائدة منها ، وتيسر

العود الى النقطة الأولى التى كانت مبدأ النزاع وسبب الاختلاف ، لاندهش الانسان من السهولة فى تذليل الصعاب ، وتمهيد المشاكل التى جعلت الفارق عظيما ومسافة الخلف بعيدة . ولقد قيل ان العالم ميدان يتنازع فيه بنو الانسان ، وهو قدر مقدور لولاه لتعذر على المهم أن يدرك كيف تكون مقدمات أمثال تلك النتائج البالغة فى الرداءة والسوء مبلغا عظيما ، حتى لقد تمر على الانسان لحظات يسائل فيها نفسه ، عما اذا كان فى الامكان اصلاح ما انثلم من حوادث التاريخ باجتهاد الناس فى فهم مقاصد بعضهم بعضا .

ومن الأمور التي لا يزال خاطرى منصرفا اليها أن المسائل المشكلة ، ولو كانت من أهم المسائل وأخطرها تتضمن فى ذاتها الحل الملائم لهـا والمطابق للانصاف والسلام ، وكنت ولازلت على اعتقاد وطيد فى المباحثات المتعلقة بمصلحة من المصالح وفكرة من الأفكار ، بأنه متي كان الطرفان على جانب من طهارة الذمة وحسن النية ، وجعلا غايتهما القصـوى المسالمة والاتفاق ؛ واتخذا لذلك وسائل الحكمة والتدبر ، وصدق اجتهادهما فى التجرد عن الاهواء ، فانهما يصلان الى نقطة تتفق فيها مقاصدهما وتتطابق رغائبهما .

وقد اعتقدت دائما أن للسياسة على الخصوص مهمة فى هذا المعنى ينحصر فيها شرفها ، وترجع اليها كرامتها ، ليس بما تعلقه الشعوب من الشكر والاعتراف بالجميل فقط ، بل بحسن العمل العقلى الذى يقوم به السياسيون بدون لغط ولا ضوضاء فى سكون مكاتبهم ، أما الاعتماد على القوة والركون الى العنف الذى هو أخص ما يلتجىء اليه القوى فهو من أخريات الوسائل وأحطها ، وهو حيلة من لا حيلة له .

ويظن الناس فى الغالب أن الواجب التفرقة بين الاتفاق والمجاهرة بالشقاق ، وهو خطأ بين وغلط ، اذ بين السلم والحرب

ميدان فسيح يمكن للسياسة أن تجول فيه جولتها ، وكما انطبقت هذه الطريقة على السياسة تنطبق أيضا على المناقشات الفلسفية والدينية ، اذ للافكار والعقائد سياسة مرجعها التسامح والاحتمال ، وليس التسامح من مخترعات هذا العصر ، بل نقيضه من مخترعاته ، لاننا اذا نظرنا فى أصول المشاكل البشرية الكبرى يكون اندهاشنا من التشابه بين الآراء التى تعذر التوفيق بعد فيما بينها ، أعظم من الانفراج المستحكم بينها • وخلاصة القول أن معيشة بنى الانسان مع بعضهم بعضا بسلام ميسورة لمن يريدون ذلك ويقصدونه برغبتهم وحسن ارادتهم •

وقد حدا بى هذا البحث الى نوع آخر من الانتقاد صوبه نحوى بعض المسلمين ، وليس المقصود به السياسة فى هذه المرة بل المقصود به الفلسفة والعلوم الدينية • وقد انتهت الى رسالتان غريبتان فى هذا الباب ، أحداهما من رجل مشهور الاسم فى فرنسا وهو (أحمد رضا) مدير جريدة « مشورت » الذى جمع ملحوظاته فى رسالة سماها (التسامح الاسلامى) وقصد بها الرد على الكتاب الغربيين الذين يتهمون العالم الاسلامى بالتعصب الدينى ، واستشهد فى خاتمتها بكلمات قالها الكردينال « لا فيجرى » وهى : (أجاهر علانية بأننى اعتبر اثارة خواطر الشعوب الاسلامية بعدم التدبر فى دعوتهم الى الدين المسيحى اثمـــا من الآثام وضربا من ضروب الجنون) ، وانه ليغيض بى الكـــلام على الوصف الذى وصف به صاحب الرسالة تسامح المسلمين ، ولكنى على ثقة من أن تبادل الشكوى أو الشتم لا يحدو بنا الى الغاية السلمية التى نقصدها ، وان الاجتهاد فى فهم بعضنا مقاصد بعض أولى وأحسن من الصياح والعويل لمنع الناس من الاتفاق والوئام •

وقد وردت الى رسالة ثانية من أحد عظماء المسلمين وهو حضرة أحمد أفندى مدحت أكبر كتاب الترك فى الوقت الحاضر ، وانى

آسف شديد الأسف من عدم امكانى نشر مضمونها بأكملها فى هذا المقام لطولها وغموض مباحثها ، ولا ريب فى أن القراء الفرنسيين كان يسرهم أن يتلذذوا بتلاوة انشاء شرقى مكتوب بلغة فرنسية صحيحة ، غير أن فى المباحث الدينية ، ولو كانت متعلقة بالاسلام ، شيئا من الاكفهرار والتجهم • على أن هذا لا يمنعنى من ايراد شذرة قصيرة يبين فيها الكاتب مبدأ الدين الاسلامى ، وها هى : « فيما يتعلق بالايمان والضمير كل مسلم رقيب نفسه ، فهو لا يقدم لاحد سوى الخالق جل وعلا حسابه عن أقواله وأعماله ، ولم ير النبى محمد عليه الصلاة والسلام ولم تسمح له فرصة رأى منها لنفسه حقا أو سلطة مما يخوله لأنفسهم رجال الاكليروس (الدين) فى الديانة المسيحية ، بل لم يفرقه فارق عن بقية العالمين أمام عدالة الحق سبحانه وتعالى وهو ما يؤخذ منه انه لو سأل أحدهم ما هو الاسلام ، لأجاب المسلمون على اختلاف مذاهبهم بأنه العمل بما قرره القرآن الشريف ــ فالديانة القرآنية لا تهوى بالانسان باقصاء الاله عنه فى نهاية الفضاء ــ اذ جاء فى القرآن الشريف (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) • هذا الدين فرق بين الانسان من وجهتيه الأدبية والمادية ، فحدد أحواله فيهما بكيفية موافقة للادراك البشرى » • ثم استنبط الكاتب من هذا الفرق دفاعا عن الدين الاسلامى يراه أرقى وأحسن ما يدفع عنه به ، وأخذ يعتب على لكونى اختصرت البحث فى المسألة الفلسفية ذريعة الى قصر الكلام على المسألة السياسية •

وانني أعترف بانني انصرفت أثناء سياحتى فى الجزائر وتونس الى الوجهة التاريخية السياسية أكثر منها الى غيرها ، واذا كان القارىء لا يمل حديثى فاننى أورد هنا بايجاز كيفية الأسباب التى حملتنى على هذه السياحة وقصر مباحثى مؤقتا على أعظم مشكلة قامت منذ قرون بين الديانتين المسيحية والاسلامية :

لما كنت أقرر مباحثي في تاريخ الكردينال ريشليو ، وصلت الى النقطة التي أفضت به الظروف الى اتخاذ طريقة من الطرق المختلفة التي حومت حوله ، واستلفتت أنظاره . ففي أواخر عام ١٦٢٢ وأوائل عام ١٦٢٣ أي في ابان استلامه زمام الأحكام ، ظهرت المسألة البروتستانتية ، وسوف أورد كيفية حله لها ، ولكن ما يعرفه القليل هو أنه عرض عليه الحكم في المسألة المحمدية ، أو بعبارة اهل ذلك الوقت في المسألة الصليبية (١) •

وكان يوجد في فرنسا وقتئذ جم غفير من الناس يجاهرون بضرورة استئناف الحروب الدينية التي اشتهرت بها القرون الوسطى ، واسترسل في هذا الموضوع كثيرون من أخص أصدقاء الكردينال ريشليو الذين أخذوا يناصره في خطاه الأولى ، ووالوه بنصائحهم وسطوتهم ، ومنهم الدوق دى نيفير ، والأب جوزيف صديق ريشليو الحميم ومشيره الخاص الذى انطوى معهم في أفكارهم قلبا وقالبا ، حتى لقد بدىء في ذلك الحين بتجهيز الحرب الصليبية . ويمكن القول بأن حزب الملكة مارى دى متديسى الذى أجلس ريشليو على منصة الأحكام ، وكان يسمى بحزب الكاثوليكيين حزب من الصليبيين •

(١) ليس عجيبا أن يدافع الوزير هانوتو الفرنسي عن الوزير الفرنسي ريشليو • والحقيقة التي تبدو واضحة من تاريخ ريشليو انه كان رجلا شديد الدهاء ، عظيم الذكاء ، وان تنحيه عن الاشتراك في الحروب الصليبية ، وعدم الاستجابة لرغبة الذين أشاروا عليه بذلك ، لم يكن ذلك منه الا بدوافع أخرى غير عدم الرغبة الشخصية ، فقد كان أول كل شيء يريد أن يوطد مكانته ، ويرسي قواعد حكمه على أسس قوية • وكان ريشليو يحارب مختلف التيارات السياسية في بلاده ، ويقف بالمرصاد لمؤامرات خصومه ، فلم يكن من حسن الرأى بتاتا أن يرسل الى خارج بلاده جيشا هو في أمس الحاجة اليه داخل البلاد • وكان من ناحية أخرى لا يرى ثمرة لمثل هذه الحروب المشتركة ، مما يمكن أن يعود على فرنسا بفوائد يستطيع أن يواجه بها خصومه الكثيرين ، ويلطم بها عليهم • فلم يكن تنحيه عن الحروب الصليبية نزعة استقلالية كما يقول هانوتو ، ولكنها دواعي السياسة الداخلية هي التي أرغمته على هذا الموقف •

فما كان من الكردينال ريشليو الا أن قطع كل صلة من أصدقائه رافضا ان يكون اله بأيديهم ، بل كان منه أن جذب الأب جوزيف الى ناحيته ثم ولى وجهه عن الاسلام فحارب ـ كما هو مشهور ـ الأسرة النمساوية • والحق يقال أن الكردينال كان من أقل الناس تعصبا ، فانه قبل أن يأتى بما عمل به ، بنى عمله على أسباب تأمل فيها طويلا واستنجد وقارن ، وأن هذه الأسباب هى التى كنت أروم الوقوف عليها لاظهارها •

وقد تابعت البحث والتنقيب علىَ هذا المثال فى اسبانيا وافريقية الى حيث تلك البقعة التى تم بها الاقتران بين العالمين الشرقى والغربى ، أريد بها تونس ، هذا هو السبب الذى استحثنى مع أسباب أخرى على النقلة الى تلك الاصقاع باحثا ومفكرا • شاهدت فيها أطلال قرطاجنة أى أطلالها فى عهد هانيبال (١) والقديس أوغسطين (٢) وفى عهد سان لويس وشارلكان ، فتجلى لى وأنا واقف على تلك الطلول أن الأرض التى كانت ميدان النزال والجلاد يمكن أن تكون أيضا مهبط السكينة والسلام •

أما الأسباب التى حملت ريشليو على العدول عن الحروب الصليبية فلسوف أبينها فى يوم ما • ولكننى بالبحث فى الماضى والمشاهدة العيانية فى الحاضر قد توصلت الى البحث عن مبادىء

---

(١) هانيبال قائد أفريقى من قرطاجنة دوخ الرومان والدولة الرومانية فى عز مجدها وسطوتها ، وقد هاجم روما برا من ناحية أسبانيا ثم عبر جبال البرانس الى فرنسا ثم عبر جبال الألب الى حوض البوفى ايطاليا ، وبعدئذ اتجه جنوبا الى أن هزمته روما فى موقعة ترازمين عام ٢٠٢ قبل الميلاد • ولقد تعقبت روما القرطاجيين من بعده الى أن انتهى الأمر بتدميرهم قرطاجنة (فى مكان تونس الحالية) تدميرا تاما عام ١٤٦ ق٠م •

(٢) القديس سانت أوغسطين كان رجلا متدينا راعته غزوات البرمان الوثنيين المروعة على مدينة روما المسيحية فكتب كتابه المشهور « مدينة الله » صور فيه اختلاجاته وعقيدته ، وأهاب بالمسيحيين انقاذ مدينتهم وديانتهم •

الاتفاق والوئام في عين المكان الذى اشتهر بأسباب الشحناء والبغضاء، بحثت عن أصول هذه الأسباب فأشرت الى السلم الناشيء من الحماية ونوهت بذكر أمر مهم وهو معيشة فريقين من الناس ، كان لا يظن أنهما يجتمعان في وئام واتفاق ، باحترام كل منهما معتقدات الآخر • لما لاحظت هذه الأمور ، كنت أود مداراة العواطف ، والاقتصار على عبارات التسامح والمسالمة ، والاكتفاء بالكلام على الحياة الفعلية ، ولكن يظهر أن هذا صعب المرام ، اذ الجميع لم يفهموا مرادى ولم يقفوا تمام الوقوف على مقصدى ، ومهما يكن من الأمر فان من الأمور المهمة قيام الافكار في البلاد المسيحية والاسلامية قياما اذا تحركت فيه بالحركة الطبيعية المبنية على حسن النية وطهارة الضمير، كانت نتيجتها التقريب والتوفيق لا الأبعاد والتفريق •

هذا ما كتبه هانوتو وليس فيه رد لشيء مما خطأه به الأستاذ الامام من المسائل الدينية والتاريخية ولكنه تنسم من الكلام أن الترجمة تشعر بانه مستحسن لما نقله عن كيمون وما هو بمستحسنه وهذا صحيح •

حديث مع هانوتو لصاحب جريدة الأهرام

فى يوليو سنة ١٩٠٠ ـ الذى نشر فيه هانوتو رده السابق على الأستاذ الامام سافر الأستاذ بشارة تقلا والتقى به فى باريس ، فجرى بينهما حديث عن هذا الموضوع نشر فى عدد الأهرام يوم ١٦ من هذا الشهر ، وقد قدمه صاحب الأهرام بما يلى :

رأيت وأنا فى باريس أن أقابل المسيو هانوتو وأقف منه على حقيقة الأحوال بوجه عام ، وعلى الغاية التى قصدها ويقصدها من كتاباته الأخيرة عن الشرقيين والمسلمين بوجه خاص ، ولما كان هذا الموضوع من أهم المباحث لدينا مع رجل مثل هانوتو الكاتب البعيد الصيت والسياسى الواقف على أحوال أوربا والشرق ، وكنا نعتقد ، كما قالت الأهرام مرارا وتكرارا ، ان تقدم الشرق يكون بتقدم الأمة الاسلامية ، توخيت أن أنشر أقواله وآراءه ، فاستأذنته بذلك فاذن لى . قال :

أنتم تعرفون من تاريخ أوربا أن أممها ما تقدمت علما ومدنية واختراعا الا يوم تقيدت السلطة المدنية ، وعرف الشعب والحكام فروضهم المتبادلة ، وأنا لم أكتب الا الى أبناء وطنى الفرنسيين ، ولم أستشهد بكيمون ، وهو يونانى الجنس ، الا لأفند أقواله التى لم ينفرد بها ، فان كثيرين من الكتاب الألمانيين والفرنسيين والانكليز وغيرهم حذوا حذوه ، وقالوا قوله ، وخلاصـــة كتاباتهم ان تقدم المسلمين مستحيل ، ونجاحهم بعيد ، لأن الاسلام معتقدهم يحول دون ذلك ، وحجة هؤلاء واحدة ، وهى انه كلما تقدمت أوربا تأخر

الشرق ، لأن الواقف يتأخر بقدر ما يسير الماشي ، وان كل حكومة انفصلت عن الشرق سارت على منهاج أوربا علما ومدنية نجحت ، مع ان الدولة العثمانية وأفغانستان ومراكش والعجم لا تزال على ما كانت عليه في السنين الغابرة ، وانما ذكرت من هؤلاء الكتاب كيمون وحده ليعرف المسلمون ما يقال عنهم ، ولأفند مزاعم هذا الرجل وغيره من الكتاب الذين على رأيه لاعتقادي أن الاسلام لا يحول دون الاصلاح والمدنية ، واستشهدت على صحة معتقدي هذا بتونس ، فذكرتها مثالا أؤيد به أقوالي وسياستي هذه هي روح كتابتي السابقة وانها ستكون روح اللاحقة •

والذي دعاني الى ذلك ما كان من هؤلاء الكتاب الذين لا يخرج مغزى كتاباتهم عن اعادة الكرات الصليبية كما كان في الأعصر الخالية ، وما دفعهم في الأيام الأخيرة الى ذلك الا الحوادث الأرضية وغيرها (١) ، ولما كنت قد وقفت نفسي لدراسة حياة ريشليو السياسي الشهير ، وسرت في أكثر أعمالي وكتاباتي على منهاجه ، وعرفت أن هذا الرجل مع أنه كاثوليكي وكردينال من أعمدة الكنيسة الرومانية رفض على عهد وزارته تلك السياسة العوجاء ، سياسة الصليبيين ، وحال دونها بدهائه المعروف ، مع أنه كان القابض على سياسة فرنسا وأوربا معا ، فاذا كان هذا السياسي الكاثوليكي قد امتنع عن تأييد سياسة أقرب المقربين اليه في تلك الأعصر ، أي السياسة الصليبية ، فهل مثل هذه السياسة يجوز اليوم انفاذها • لا لعمري ، فلهذا عارضت بالأمس ، ولهذا أعارض اليوم ، ولحسن الحظ أن الرأي العام اذا قال بوجوب مساعدة الضعيف ضد الظالم ، فهو لا يريد

---

(١) اختلفت الآراء وتضاربت في تقرير دوافع الحروب الصليبية فقال البعض انها حروب دينية بحتة ، وقال آخرون انها حروب استعمارية • والواقع الذي يستطيع كل من تتبع تاريخ هذه الحروب ان يلمسه ويدركه ، هو أن هذه الحروب كانت دوافعها دينية واستعمارية •

حربا تشب نارها اعتداء ، ولا سيما الحرب الدينية ، فهي عثوة المدنية بل هي أفظع الأعمال ·

على أن معارضتي لأمثال هؤلاء الكتاب ، أي نقضي لأقوالهم ، لا يمنعني عن أن أقول لكم الحقيقة ، لأنه يستحيل علي أن أقول أن شرقكم سائر على منهاج حكومات أوربا في العدل والحرية والمدنية ، كما أنه يستحيل علي أن أقول ان حالتكم الحاضرة ضمان لمستقبلكم السياسي ، فأعلم أن أوربا حاربت السلطة الدينية مدة ثلاثة قرون لا عن عدم اعتقاد ، بل لتفصلها عن السلطة المدنية ، فان المتحاربين كانوا من معتقد واحد ، ولكن أراد أفراد أممها أولا ولفيف شعوبها ثانيا أن تكون الكلمة الأولى للسلطة المدنية في أحوال الحكومات وشئون الشعب ، وأن يكون للمعتقد حق الأدبيات الدينية بأن يعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله ·

واعلم أن الذي أيد هذه السياسة أيضا في بلادنا فرنسا هو أعظم تلامذة روما وأحد أقطاب الكنيسة الكاثوليكية أي الكردينال ريشليو ، فهو الذي قال بفصل السلطتين ، ولم تنسه واجباته الكنسية الدينية معرفة الحقيقة ، وهو بهذه السياسة خدم السلطتين أشرف خدمة ، اذ أيد السلام بينهما فتأيدت سطوة الحكومات وتقدمت شعوب أوربا تقدما عجيبا ، واعتزت السلطة الدينية أيضا ، وعاشت السلطتان بوفاق وسلام ·

وهذا ما نريد تأييده نحن الفرنسيين في مستعمراتنا بأن يكون الأمر المطلق للسلطة الحاكمة ، مع احترام عقائد الشعوب التي تحت حكمنا وسلطتنا ، وهو ما سرنا عليه في الجزائر وتونس وغيرهما من المستعمرات الفرنسية ·

واني لا أكلمك كمسيحي بل كمؤرخ أو كاتب حر الضمير ، لا شأن لغيره في معتقده الخاص ، ولكنني أحترم أدبيات كل دين

ومعتقده ، وأقدر تلك الأدبيات حق قدرهـــا ، ولكن الماديات غير الأدبيات ، والأولى من شئون عالمنا هذا الذى نعيش فيه ونحيا به ، وكل أمة لم تتقدم فى ماديتها لابد أن تموت ، اذ لا حياة بلا مادة ، والهكم أنتم أيها الشرقيون اله أوربا واله أمريكا ، اذ أن اله الجميع واحـــد ، ولا يمـكن أن يكون أكثر انعطافا على الأوربى منه على الأمريكى ، فالشرقى ، بل ان الشرقيين عموما ، أكثر تمسكا بعقائدهم من الغربيين ، وقد علمنا أن أوربا فاقت شرقكم بمراحل ، ونرى اليوم أمريكا تزاحم أوربا ، وكثيرا ما فاقتها فى اختراعاتها وفنونها ، ولم يكن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى أميل الى الأمريكى منه الى الأوربى أو الشرقى ، ولكن لأن الأخير مستميت والأول حى ، هذا يشتغل مجتهدا ، وكلما زادت أرباحه زاد نشاطا واقداما ، وذاك يقضى حياته بين القنوط واليأس مستسلما ، ولهذا تقدم الأوربى وتأخر الشرقى وضيق أوربا بأهلها دفعها الى الاستعمار فى كل صوب ، فصادف أبناؤها أرضا واسعة وشعوبا لا حراك بهـــا ، فقبضوا على الأعمال السياسية والاقتصادية فيها .

وهنا استسمحت حضرة المسيو هانوتو وقلت لـــه : اذا كنت تحب مصلحة المسلمين ، وتعتقد أنهم راضون فى تونس ، فهل تعتقد ذلك فى أهل الجزائر ، ولماذا لا تسأل الحكومة الفرنسية أن ترى فى أحوال هؤلاء ؟

فقال : أما التونسيون فلا خلاف فى أنهم مسرورون بحالتهم ، ونحن قد دخلنـــا بلادهم وهى قاع صفصف فوق شملهـــا أفراد حكموها . وأما نحن فقد تركنا للسكان حقوقهم المذهبية ، فاحترمنا جوامعهم وعقائدهم وأحوالهم الشخصية ، ولم نسألهم الا أمرا واحدا أى احترام سلطتنا السياسية ، فادركوا هذه الحقيقة وعملوا بها ، ولهذا كان النجاح عظيما فى مدة قريبة ، وأنت تعلم أن مذهبى فى الاستعمار وضع الحماية كما هو فى تونس لأضم المستعمرة الى

فرنسا ، كما فعلنا في مدغشقر بالرغم من معارضتي ذلك ، وقد رضيت به منقادا لأوامر أكثرية دار الندوة ، ولا أنكر انه يجب تعديل بعض قوانين الجزائر ، وقد شرعنا في ذلك ، وسأكتب كثيرا في هذا الموضوع ، لأني ذهبت بنفسي الى تلك البلاد ، ودرست أحوالها ، وأمل ألا يمضي طويل زمن حتى ترى ذلك الاصلاح الذي طلبه غيري وشرعت حكومتنا في انفاذه •

ـ قلت : اني أعرف ما سردته لي عن تاريخ السلطتين الدينية والسياسية في أوربا وعن أحوال شعوب القطرين ، (تونس والجزائر) ولكن ذلك مستحيل في الشرق ولا سيما في الحكومة الاسلامية ، والذين يقولون به من الأجانب ليسوا الا خصوما للمسلمين ، لاعتقاد هؤلاء أن في فصل السلطتين ضعفا ترومه أوربا لتنال بغيتها منهم •

قال هانوتو :

أنا لا أسأل الشرق ذلك فهو حر يفعل ما يشاء ، ولكن أعتقد ان أوربا لم تتقدم الا بعد تعيين حقوق السلطتين ، وجعل الكلمة الأولى للسلطة الحاكمة ، كما اني أعتقد أن جمع السلطتين في شخص واحد لم يمنع أن تخسروا في الحروب الماضية ، وأعتقد أيضا أن صاحب السلطتين ولا سيما في بلاد كالشرق يستطيع أن يجري اصلاحات لا يقدر غيره عليها • ويعلم المسلمون أن جمع السلطتين في شخص واحد لم يمنع فرنسا من الاستيلاء على الجزائر وتونس ، وانكلترا من التهام الهند ، وروسيا من أخذ تركستان وغيرها الى حدود أفغانستان ، كما أنه لم يمنع استقلال مراكش وبلاد فارس ، والمملكتان اسلاميتان ، فاذن كان يستحيل توحيد سلطتهما الدينية واذا كان الاسلام كما قلتم ويقول كتابكم أنه لا يحول دون التقدم المصري فما بالكم متأخرون ونحن متقدمون ؟ وبماذا تردون على أولئك الكتاب الذين لا يعتقدون اعتقادكم ؟ فاذا

قلتم ان أوربا تحول دون الاصلاحات ، اذن ، فلم تأخرتم واليابان تقدمت ؟ وهي لم تشتغل الا ربع قرن حتى وصلت الى ما وصلت اليه اليوم ، فأصبحت اوربا تقدرها قدرها فى جميع مسائل الشرق الأقصى •

واذا قال لكم أولئك الكتاب اننا مقتنعون بأن أوربا وشعوب تركيا حالت دون اصلاح الولايات الواقعة فى أوربا والقريبة من أوربا كسوريا مثلا سألتكم ، هل مسلمو بغداد وما بين النهرين وحلب راضون عن أحـوالهم ؟ أيظن رجالكم وكتابكم اننـا نحن وكتابنا جاهلون أحوالهم هنالك حيث لا أوربى ولا غيره يحول دون تعميم العدالة وحفظ حقوق المتقاضين ؟ •

وانا اعرف أن امثال هذه الحقائق يجرحكم ذكرها ، ولكن قد حان لكم الا يعميكم غرضكم عن الحقيقة ولو أنها خارجة من فم أجنبى ، ما دام كتابكم لا يقولونها فقط بل يكذبونها ، كأنى بهم يساعدون الظالمين من حكامكم على ما يأتونه من المغارم والمظالم ، فكان ذنبهم نحو وطنهم اعظم من ذنب الحكام الظالمين •

وانى اقول لك هـذا بعد الذى قرأته فى جرائدكم ردا على ما كتبته ، فقد عدونى خصما لهم ، ونسوا خدماتى لهم وأنا فى منصة الوزارة الخارجية فى أيام المسألة الأرمنية ، فاذا كان هذا رأيهم فى صـــديق خدمهم ، فماذا يكون حكمهم على خصـــم جهر بعداوتهم ؟ ولكن فليعلم هؤلاء انه اذا حدثت أمثال تلك الحوادث فى المستقبل فيستحيل على وزير أوربى أن يقبل مثل تلك السياسة • ولا اقول هذا من باب العداء ، بل لما نراه من تعديل أوربا على وجه عام مبادىء سياستها الخارجية مع الشعوب الشرقية ، فان الدول ستكون واحدة فى المستقبل كما ترى الآن فى مسألة الصين •

فقلت للمسيو هانوتو : وما شأنكم والشرق وأمه فكلاهمـــا راض عن حالة ، ومفضل لها على كل سلطة أجنبية أو اوربية ،

والذى ينفر الشرقى هو ظلم أوربا فى سياستها هذه ، وعتبنا على فرنسا أكثر من غيرها لأنها عودتنا حماية الضعيف من القوى .

فقال الوزير بعبارة صريحة : ان هذه الأقوال خيالية لا تنطبق على حالة أوربا فى هذا الزمان ، فهى بعد أن كانت لا تهتم بغير قادتها ، قد اندفعت الى الاستعمار ، ولا تقف عند دعوى العدالة وغيرها ، واعلم أن فرنسا مضطرة ، ما دامت لا تقدر على منع الدول الثانية عن توسيع نطاقها الاستعمارى والتجارى الى الاقتداء بالدول المذكورة . وانى أرى كتابكم وأفراد أمتكم يجهرون فى غالب الأحيان بأفكار صبيانية فيستعبدون للألمانى لنكاية الانكليزى ، وينتصرون للفرنسى على الألمانى ، ولكن أما حان لهم ان يعلموا أن الأوربيين مهما اختلفت أجناسهم ومذاهبهم من السهل اتفاقهم على الشرقيين ؟ لأن هؤلاء لا يعملون عمل العامل البصير باستخدام مصلحة هذه الدولة أو أغراض تلك الأمة لاصلاح شئونهم بل لمعارضة دولة ثانية ، وهى سياسة قديمة العهد لا تعتد بها أوربا اليوم . وانت تعلم أن ألمانيا أكثر الدول فى أوربا استقرارا ، وأبعدها عن الاستعمار ، وهى التى اقترحت تجديد مناطق النفوذ فى الصين ، وهى التى سألت امتياز انشاء « سكة حديد » بغداد ، مما يدلكم على أن أوربا لا تسعى الا الى مصلحتها السياسية .

ثم قال لى : أنت تقول لى أن الساسة المسلمين لا يعتقدون باخلاص سياسة أوربا كلها أو بعضها ، ولهذا يخافون من مصافاة هذه الدولة خوفهم من معاداة تلك لاسيما وأن أكثر الدول تطمع فى أملاكهم ، وحضرتك أكدت ذلك فى كلامك الآن عن سياسة أوربا .

والمسلمون يعتقدون أيضا أن مصلحة أوربا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية ، ولذلك لا يأمنون على أنفسهم من سياسة الدول المسيحية ، وقد أدى بهم فقدان هذه الثقة الى الا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم ، وهم يؤيدون

سياستهم هذه لما رأوه من تدخل أوربا فى أعمالهم ، ومن أفعال الموظفين غير المسلمين فى المناصب السياسية العثمانية سواء أكان فى بلاد الدولة أم فى سفاراتها ، وأنت تقول لى أن فى ذلك بعض المغالاة ولكنهم يعذرون •

فهذا الذى تقوله لى اليوم قد سمعته منك من قبل وقاله لى بعض العثمانيين فى الاستانة وباريس ، ولكن تفنيده أمر سهل واليك البرهان :

لا يسعك والساسة المسلمين أن تنكروا أن بعض دول أوربا قد اتفقت مع الدولة العثمانية على دول ثانية مسيحية فى أوربا ، فان هذا حصل قولا وفعلا فى حرب القرم ، فنحن وانكلترا لم تبخل بالمال والرجال لمساعدة دولتكم العثمانية ، ونحن وروسيا والمانيا منعنا بعض دول أوربا عن نيل أغراضها فى المسالة اليونانية ؛ وهذه الدول الثلاث خدمت سلطنتكم اجل خدمة فى المسالة الأرمنية ، بالرغم من هيـاج الرأى العـام الأوربى وتصريح بعض الدول بمعارضتكم ، وتلك أمور حديثة العهد يعرفها رجالكم كما نعرفها نحن •

واذا راجعنا حوادث التاريخ القديمة تبين لنا أيضا أن فرنسا وبولونيـا وغيرهما حالفت الدول العثمانيـة ضـد دولة ثانيـة مسيحية ، مما يدل على أن ضـالة أوربا مصلحتها الاقتصـادية والسياسية ، ولا دخل للاعتقاد البتة فى أعمالها ، ولعمرك هل منع المانيا كونها مسيحية أن تحارب أوستريا وفرنسا المسيحيتين ؟ وألم تحارب ايطاليا أوستريا ؟ وهل منع فرنسا مذهبها الكاثوليكى من أن تحالف روسيا ومذهبها أورثوذكسى ؟ وهكذا قل عن التحالف الثلاثى بين البروتستانتى الألمانى والكاثوليكى النمسوى والايطالى ، وهذه الترنسفال دينها كدين انكلترا وأهلها من أقرب العناصر الى

الجنس السكسوني • وقد حاربهـا الانكليز وغرضهم سلب استقلالها •

كل هـذه شواهد قديمة العهد وحديثة تفند زعم حضرتك ومزاعم ساسة الشرق •

واني أتساهل معك وأقول ، ان بعض دول أوربا يريد لكم سوءا ، وان هذا ولد فيكم عدم الثقة بنا نحن الأوربيين ، ولكن اذا كان قد استحال على دول الشرق ، وهي في أوج مجدها وشامخ عزها ، ان تتحد وتوحد كلمتها ، فهل يسهل ذلك عليها اليوم ؟ واذا كان المسلمون يعدون سياسة أوربا عداء لمصلحة الاسلام ، لأن أوربا مسيحية . وهو زعم باطل ، فهل كان ما ينادون به من وجوب الاتحاد الاسلامي وجمع كلمة المسلمين مما يخيف أوربا ، ويمنعها عن انفاذ ما يتهمها به المسلمون ؟ وكيف يمكن ذلك الاتحاد المزعوم ؟ اترضى به أوستريا ولها البوسنة والهرسك وهي طامعة في غيرهما ؟ أم تقبله فرنسا مع أملاكها الافريقية الواسعة ؟ أم تؤيده أنكلترا وعدد رعاياها المسلمين عظيم ؟ أم تعضده روسيا ؟ اليس ذلك خرقا في الرأي من الذين ينـادون بهذه السياسـة ؟ كأني بهم هم الذين يريدون انفاذ ما يطلبه كيمون وغيره من كتاب أوربا ، وقد كان أولى لمثل أولئك الكتاب أن يكتبوا كتابات أدبية بلغـات الكتبة الأوربيين لتفنيد أقوالهم ولاستمالة الرأي العـام الأوربي اليهم • أما ما كان يجب عمله على رجالكم سواء كان الذين عركتهم حوادث السنين الغابرة أو الذين درسوا في أوربا وتعلموا بعض علومها ووقفوا على قليل من مبادئها وسياستها فهو أن يهتموا بنشر العلوم العصرية في بلادهم ، وان يعملوا في الخارج على ازالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب ، بأن يتخذوا أقدام أوربا واجتهاد أبنائها مثالا يسيرون عليه ، وانموذجا يعملون بموجبه ، أي كما فعل اليابانيون في السنين الأخيرة • وأنت تعلم أن الذي

نبه اليابان هو خوفها من أوربا ، وهى التى لم تتعز عن ضعفها باحتقار الأوربى وذمه والمباهاة بمجد الاباء ، ولم يقل يابانى بتحقير الأجنبى ، لأنه عنصر غريب ، أو لأنه مسيحى ودينه بعيد بمراحل عن دين أهل اليابان بل قال رجال هذه المملكة بوجوب محاربة أوربا ، ولكن بسلاح أوربا ، أى بأن تتشبه بها فى العلم والمدنية والاقدام ، ولهذا فازت فى مطالبها ، وحالت دون فتوحات الأوربى الاقتصادية أولا فالسياسية ثانيا •• ولو أتى رجال الشرق القريب هذا المأتى منذ حرب القرم لما شكا مسلم من أوربا ، ولما شكا كاتب أوربى من حال الشرق وأهله ، بل لو فعلوا وحدث انقلاب عظيم فى السياسة الأوربية سواء كان فى أوربا أو فى الشرقين الأقصى والأقرب لكان دون شك حظ دولتكم العثمانية أضعاف حظوظ أعظم دولة أوربية •

وأرانى فى هذا الشرح قد بلغت ما قصدته من تفنيد ما يزعمه رجالكم الذين اذا رجعوا الى نفوسهم عرفوا هذه الحقائق كما نعرفها نحن ، وقد كان يجب عليهم أن يجهروا بها خدمة لأمتهم ولوطنهم لا أن يتجاهلوها ويكذبوها •

وتقول لى أن النهضـــــة العلمية بدأت فى مصر ، وأن بعض الأفراد أنشئوا المدارس ، وأن الجناب السـلطانى قد اهتم كثيرا بتوسيع نطاق المعارف فى البلاد العثمانية ، وأن أصحاب النشأة الجديدة أدركوا قصـور الحكام ، وتأخر البلاد ، فقاموا يجهرون بوجوب الاصلاح وتعميم العدالة ، والأمل وطيد بالنجاح • ولكن الطفرة محال وهذا أمر يسرنى ويشرح صدرى لأنى أرغب رغبـة خالصة فى نجاح شرقكم ، ولكن يجب أن تعلم أن العبرة ليست فقط فى اقامة المدرسة بل فى وضع « البروجرامات » المدرسية ، كما أن العلم وحده لا يكفى وقد يضر اذا لم يمزج بالتهذيب ، فانى لا أجهل أن كثيرين من أبناء الشرق درسوا فى أوربا ، وقد يربو عددهم على عدد اليابانيين الذين درسوا فى أوربا أيضا ، ولكننا

رأينا فى اليابان نتيجة لم نرها حتى الآن عندكم ، ولعلنا نراها يوما لأنى أعتقد أن رجــال النشأة الجديدة ينجحون نجاحا كاملا اذا كان غرضهم خدمة الوطن منزهة عن كل غاية شــخصية أو مذهبية ، لأن الواحد قد يجمع أكثر من عنصر ومعتقد ، ولكن الاعتقاد وحده لا يجمع الا عنصرا واحدا ، وأنت تعلم أن الفرنسى يشمل الكاثوليكى والبروتستانتى والمسلم واليهودى والوثنى وغيرهم من رعايا فرنســا ، ولكن الكاثوليكى الفرنسى والارثوذكسى الفرنسى لا يشمل كل فرنسى ٠

لهذا كانت السلطة المدنية أهم وأشد من الرابطة الدينية ، وهى التى كانت قاعدة أوربا الأولى فى سياستها وبها تقدمت وتمدنت ونجحت ٠ والى هنا قد أجبتك على جميع ما أردت أن تعرفه منى عن رأيى فى الشرق ٠

رد الاستاذ الامام

قرأت الساعة مقال مسيو هانوتو المترجم في جريدة المؤيد نقلا عن جريدة « الجورنال » الباريسية تتميما لبحثه السابق •

بحثه السابق وشيء من تتمته انمـــا هو دافق من غيرته على شئون دولتـــه ، يريد أن يدعو قومه الى التبصر في وضع قاعدة ممالكهم ، وذلك لا يتم على مذهبه الا بالبحث في طبيعة الأمر الذى صار به المسلمون غير مسيحيين ، وبه يفضـــل المسلمون سلطة اسلامية على سلطة فرنسية • فان أمكن تلقيح ما عليه المسلمون لمعاملة المسلمين الذين يدخلون تحت ولايتهم ، أو يجاورونهم في بالولاء الفرنسى ، وسهل الجمع بين ما وقر في نفوســـهم وبين الخضوع الأعمى لسلطان فرنســـا ، وطاب الجوار في قلوب الملة الاسلامية لعقيدة الاسلام والطاعة لكل أمر يصدر من آخر فرنسي في طبقته ، صح للدولة الفرنسية أن تمن على المسلمين بالبقاء في الأرض وإلا وجب عليها أن تحمـــل عليهم فتبيدهم من البسيطة أو تجليهم الى قارة أخرى •

ولهذا جره البحث الى النظر في أصـــول دين المســـلمين ، والمضاهاة بينه وبين الدين المسيحى ، بل بينه وبين أديان كثيرة أشار اليها في كلامه ، ثم الحكم في تفضيل أحد الدينين على الآخر بآثار كل منهما في نفوس معتقديه •

أما غايته من البحث وتناوله بيده يحرك به نيران العداوة فى قلوب الفرنسيين ليثير عزائمهـــم الى حرب المســـلمين وليكون مسيو هانوتو للأمة الفرنسية اليوم مثل ذلك الراهب الذى أثار تلك الحروب المعروفة (١) • فذلك أمر تكل فائدته اليه والى علمه بمكان دولته من القوة ، ومنزلة تمدنه من المرحمة والانسانيـــة • وتلفت اليه ذكاء بعض شبابنا من المسلمين الذين يعرفون اللغـــة الفرنسية ويتجملون بآداب الأمة الفرنســـية ويطربون اذا ذكرت المدنية الفرنسية •

ولو لم يتعرض مسيو هانوتو الى الطعن فى أصل من أصول الدين ما حركت قلمى لذكر اسمه وكان حظى من النظر فى مقالة هو العظة والاعتبار ــ حظ الناظر فى أحوال الأمم وأعمال رجالها ــ حظ المؤرخ الذى يقرأ ليفهم ، ويفهم ليعلم ويحكم • ولا يهمه أخطأ القائل أو أصاب •

أما ما جـــاء فى التحكك باصـــول الدين فهو الذى أغمزه بما أكتب اليوم •

يرى الناظر فى كلام مسيو هانوتو لأول وهلة أنه مقلد فى التاريخ كما هو مقلد فى العقائد ، وانه جمع خليطـــا من الصور وحشرها الى ذهنـــه ، ثم هو سلط عليها قلمه ينثرها كما يشاء القدر ليدهش بهـــا من لا يعرف الاســـلام من الفرنسيين وهو جمهورهم •

أكثر من ذكر التمدن الآرى والتمدن الســـامى والتفريق بينهما ، وان أحدهمـــا قهـــر الآخر وان التمدن الآرى هو الذى ظفر بقرينه التمدن السامى وما يشبه ذلك •

(١) يقصد بذلك الحروب الصليبية • ولعله يقصد البابا الفرنسى أربان الثانى •

ان مهد التمدن الآرى ومنبت غراسه (الهند) لا يزال الى اليوم على الوثنية التى يحبهـــا مسيو هانوتو فى أغلب أنحائه ، ولكن أهله هم الذين قضوا على الآخذين بعقائدهم أن ينقسموا الى أقسام لا يمكن الخلط بينها بل يدوم تباينها مادامت الأرض أرضا . ومن طبقاتهم من قضى عليه بالانحطاط فى العقل والخلق والصناعة لا يباح له أن يرتقى الى طبقة ما فوقه الى انقضـــاء العالم ، وهو الجمهور الأغلب منهم ، وفيهم من حكم عليه بالنجاسة حتى لا يباح لأهل طبقة أخرى ان تمسه . والاعتقاد بفناء العالم ، وانه لا يليق بالانسان أن يهتم بشئون العيش هو مبنى عقائدهم .

فهل جاء هذا للآخذين بدين البراهمة من التمدن السامى ، وهو لم يعرفهم الا فى آخر الزمان . ولم يخالط الا قلوب القليل منهم ، كما لا يخفى على من له المام بجغرافية البلاد الهندية .

ثم هل يظن مسيو هانوتو أن التمدن الذى وصل اليه الأوربيون حمل الى أوربا مع المهاجرين الأولين الذين رحلوا من البلاد الشرقية الآرية الى الأقطار الغربية ؟

ألم يخطر ببــاله تلك المظالم التى انتفخ بها بطن التاريخ وما كانت عليه أوربا الآرية من الهمجيــة ، وان العلم والمدنيـــة لم ينبعا من معينها ، وانما جاءها هذا بمخالطة الأمم السامية كمـــا يعلمه المطلع على تاريخ اليونان الأقدمين وهم أســـاتذة الأوربيين الآخرين كما يزعم مسيو هانوتو ؟

ما هذا التمدن الآرى الذى كانت عليه أوربا عندما انتقص اطرافها المسلمون ؟

هل كانت تلك المدنية هى التسافك فى الدماء ، واشـــهار الحرب بين الدين والعلم ، وبين عبادة الله والاعتراف بالعمل ؟ نعم ! هذا هو الذى كان معروفا عند الغربيين وقتما ظهر الاسلام .

ماذا حمل الاسلام الى أوربا ، وما هى ذى المدنية التى زحف عليهم بها فردوها ؟ زحف عليهم بما اســـتفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا من الآريين ، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين ، نظف جميع ذلك ونقـــــاه من الادران والأوساخ التى تراكمت عليه بأيدى الرؤساء فى سائر الأمم الغربية لذلك التاريخ وذهب به أبلج ناصـــعا يبهر أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا فى ظلمات الجهالة لايدرون أين يذهبون ·

انى أكيل لمسيو هانوتو اجمالا باجمال ، والتفصيل لايجهله قومه ، وكثير من منصفيهم لم يستطع الا الاعتراف به ·

ان أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها الى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها ، وعمل رجـــال الدين المسيحى على اطفائها مدة قرون فما استطاعوا الى ذلك سبيلا · واليوم يرعى أهل أوربا ما نبت فى أرضهم بعد ما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدى أهل دينهم فى سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة ·

يحار القارىء لكلام مسيو هانوتو فى معنى المدنية السامية التى جاء بها الاسلام وتصادم بها مع المدنية الآرية ·

ولعل عنايته بالألفاظ التاريخية مع قصوره عن النفوذ الى حقائق ما أودعته هو الذى قصر به عن النجاح فى أعماله فى السياسة الخارجية بين أمة مثل الأمة الفرنسية التى تنقاد بذكائهـــــا الى الاذكياء · والعارف بطباع الأمم لا يعسر عليه أن يقودها الى ما يضمن لها الفوز على جيرانها ، وانمــا العسر كل العسر ان يوجـــد ذلك العارف اليوم ·

ان الناظر في التاريخ تحمر عيناه من مناظر الدماء المتجسدة على جليد الأزمان ، ذلك مما سفكه أهل ذلك الدين المتحد بالمدنية الآرية ليقاوموا دعاة تلك المدنية السامية ويخمدوا نارها .

ان صح الحكم على الأديان ، بما يشـــاهد في أحوال أهلها وقت الحكم ، جاز لنا أن نحـــكم بأن لا علاقة بين الدين المسيحي والمدنية الحاضرة ، فان الانجيل بين أيدينا نقرؤه ونفهمه ولا يغيب عنا شيء من دقائق معناه ، يأمر الانجيل أهله بالانسلاخ عن الدنيا والزهادة فيها ، ويوجب عليهم اذا سلبهم السالب قميصا ان يعطوه الرداء أيضا ، واذا ضربهم الضارب على خدهم الأيمن أن يديروا له خدهم الأيسر ، وأن يفنوا بكليتهم في الأب ، ويقضي عليهم أن دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول الغني ملكوت السموات ، وما شابه ذلك من الوصايا الملكوتية التي تليق برسول الهي رباني يدعو الناس الى الانقطاع عن هذا العالم الفاني ليليقوا بالانتظام في أهل ذلك العالم الباقي .

هل خطر ببال مسيو هانوتو أن يجعل ما لله لله وما لقيصر لقيصر كما أوصى الانجيل ، وهل رأى مثالا لذلك في المدنية الآرية التي تآخت مع الدين المسيحي ؟ العيان يدلنا على أن شيئا من ذلك لم يكن . فان هذه المدنية انما هي مدنية الملك والسلطان ، مدنية الذهب والفضة ، مدنية الفخفخة والبهرج ، مدنية الختل والنفاق ، وحاكمها الأعلى هو الجنيه عند قوم والليرة عند قوم آخرين ، ولا دخل للانجيل في شيء من ذلك .

أوصى المسيح بأن يترك ما لقيصر لقيصر حتى لا يشـغب

المسيحيون على ملوكهـــم من غير فانقلبت الحال بهم ، وأصبحوا لا يحتملون أن يروا لهم رعايا من غير دينهم فضلا عن ملوك .

نعم يوجد قوم الآن يقيمون أوامر الانجيل وهم جمـاعة من

الأمريكان تركوا بلادهم وخرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا الى القدس الشريف ينتظرون نزول المسيح ليستقبلوه لأول هبوطه على المنارة المشهورة ، وليكونوا أول من يقبل قدميه ويديه • وهم من طهارة القلب وسلامة النفس ونزاهتها عن الطمع بحيث انقطعوا عن كل عمل سوى النظر فى الكتب المقدسة ، فان كانت هذه هى المدنية الآرية التى صارعها الدين الاسـلامى فأنا أول من يسلم لحجته ويقتنع بأدلته •

من الساميين الفينيقيون وهم أسـاتذة القوم فى الصناعة والتجارة بل والقراءة والكتابة ، ومنهم الآراميون وقد كانت لهم مدنية لا تنكر أيام الرومانيين ، وما كان الغربيون لينكروا فضلهم فى ذلك • ومبادىء الصناعة والعمل عند جميع الأقوام المرتقية فى سلم الانسانية واحدة ، وانما يختلف قوم عن قوم بما تحدثه فى نفوسهم ضرورات المعيشة ، وما تجلبه عليهم عاصفات الحوادث ، وما تطبعه فيهم طبائع الأقاليم ولا زالت الأمم يأخذ بعضها من بعض فى المدنية ، لا فرق عندهم بين آرى وسامى متى مست الحاجة الى تناول عمل أو مادة أو ضرب من ضروب العرفان لدفع ضرورة من ضرورات الحياة ، او استكمال شأن من شئونها • وقد أخذ الغرب الآرى عن الشرق السامى أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل عن الغرب المستقل ، فلم يبق من معنى للمدينسة يريده حضرة الكاتب الا الدين وقد ظهر فى كلامه أن الدين السامى يراد منه التوحيد والدين الآرى يعنى به ما يقابله •

وانى أقرر لهذا الوزير الشهير حقيقة بديهية يعرفها صبيان المكاتب وهى أن دين التوحيد ليس دينا ساميا بل هو دين عبرانى فقط عرف به ابراهيم عليه السلام وبنوه ومنهم عيسى من جهة أمه وأصحابه وأنصاره الأولون • أما بقية الساميين من عرب وفينيقيين وآراميين وغيرهم من الأمم المذكورة فى الكتاب المقدس وهو يعرفها ،

فقد كانوا وثنيين مشبهين ولم يخالفوا فى ذلك بنى عمهم أو أعداءهم الآريين ، وقد خاض الكاتب فى تفضيل التشبيه والتجسيم على التوحيد ، ، وذكر لذلك عللا وأسبابا أدته اليها سعة اطلاعه فى الفلسفة وأحوال الاجتماع الانسانى ، وسنأتى على الكلام فيها ٠
وقبل القاء القلم أذكر الذين يتفانون فى اجلال مثل هذا الوزير كما يتفانى المسلم فى الله على رأيه انى ان صغرت شأن هانوتو فى معارفه التاريخية فذلك لأنه صغير فيها حقيقة ، وكثير من قومه يعرف ذلك منه ولأنه لا أمير فى العلم الا العلم والسلام ٠

- ٢ -

تحرش مسيو هانوتو بمسألتين من أمهات مسائل الدين القدر والتوحيد أو التنزيه ٠ وبعد أن خلط فى بيان وجه الأشكال فى المسألة الأولى واختلاف الناس فيها قديما ، وانهم انقسموا الى فريقين : قائل بأن العبد مسير بقدرة الله لا عمل لارادته فى فعله ، وذاهب الى أن خالقه وهبه اختيارا يتصرف به فله ما كسب وعليه ما اكتسب ، قال ان الرأى الأول يحط الانسان الى حضيض الضعف ، والثانى يرفعه الى ذروة القوة ، ثم وصل الأول بمذهب البوذيين القائلين بفناء الموجودات فى الوجود الأزلى ، والثانى بمذهب اليونانيين القدماء الذين يدينون بتشبيه الاله بالانسان فى اوصافه المادية ، وأن الأول قعد بأهله والثانى ارتفع بمعتقدته الى مراتب الكمالات الانسانية !! وهو خلط وخبط لم يعهد لهما مثيل ٠
ثم انصب على الديانتين المسيحية والاسلامية وقال انهما تمثلان ذاك المذهبين ، أى مذهبى الناس فى القدر ، وأن الأولى ربانية ورثت ما ترك الآريون ، والثانية بشرية اخذت ما ترك الساميون ، وأن الأولى ترقى بالانسان الى المقام الالهى ، والأخرى تنزل به الى أسفل درك حيوانى ، ويظهر ميل كل من الدينين ظهورا بينا فى الأصل الذى بنى عليه كل منهما ، فأصل الأول هو ايجاد

الاله الأب للاله الابن حتى كان الها بشرا ، واتصال الالهين بروح القدس • وأصل الثانية تنزيه الاله عن البشرية وتقديسه الى حد تنقطع فيه النسبة بينه وبين الانسان ، ثم رجع بعد هذا الى الخلط بين الدينين وردهما الى أصول واحدة وعقد التشابه بينهما الى آخر ما أطال به على غير جدوى •

هل عهد بين الكتاب وأهل النظر تشويش فى الفكر وخلل فى المقال يشبه ما جاء به هذا الكاتب ؟ أدع الحكم فى ذلك لمن له أدنى المام بمذاهب الأمم وآرائهم •

لم يختص الكلام فى القدر بملة من الملل مشبهين أو منزهين ، ولا دخل للتشبيه والتنزيه فى شىء من ذلك بل كان منشأ الكلام فى ذلك الاعتقاد باحاطة علم الله بكل شىء وشمول قدرته لكل ممكن •

وقد عظم الخلاف فى المسألة بين المسيحيين أنفسهم وهم مشبهة فى رأى مسيو هانوتو ، وبدأ النزاع بينهم قبل الاسلام واستمر الى هذه الأيام • ولعل هانوتو اطلع على مذهب التوميين — أتباع القديس توما (١) — أو الدومينيكيين وهم جبرية وأشياع (لويولا) وهم قدرية واختيارية ، ولكل من المذهبين شيعة بين أهل الملة المسيحية • وليس هذا بمذهب سامى كما يزعم ، بل لم تنبت أصوله ولم تتشعب فروعه الا بين الآريين ، ثم انتقلت عدواه الى غيرهم •

---

(١) القديس توما الاكوينى راهب دومينيكانى عاش فى الفترة من ١٢٢٥ الى ١٢٧٤ م • وهو الذى قال بأن الفلسفة لا تتعارض وتعاليم الدين المسيحى • وقد كان الأكوينى حجة فى اللاهوت والفلسفة • وجدير بالذكر أنه اطلع على آراء ابن سينا ، والامام الغزالى ، وابن رشد عن طريق الترجمات اللاتينية • ومن مؤلفاته العديدة : « الخلاصة اللاهوتية » و « الخلاصة ضد الأمم » و « مدينة الله » •

هل سمعت بيهودى استلقى على قفاه وترك العمل اتكالا على القدر ؟ هل سمعت بأحد من الفينيقيين (وقد وصلوا بزوارقهم ذات المجاذيف الى جزائر بريطانيا) انه كان ينام ويتلذذ بالأحلام اعتمادا على ما يسوقه اليه الغيب ؟ لكن سمعنا بذلك فى الأديار وبين الرهبان وعرفنا أخبار ذلك الجيش العرمرم من المتكلين الذين كانوا يعيشون عالة على الناس حتى ضجت منهم أوربا فى زمن من الأزمان وطلبت الخلاص منهم بالصارم والبتار .

وقد اشتهر مذهب أهل البخت والاتفاق بين اليونانيين ولم يخف أمره على صغار المتعلمين لمبادىء الفلسفة - ذلك المذهب الذى يبتدئون كتب الفلسفة بإبطاله وهو مذهب القائلين أن الأشياء توجد بالاتفاق أو بالمصادفة ولا يحتاج الممكن فى وجوده الى سبب . أليس هذا ادخل فى باب الجبرية من اسناد كل أمر الى خالق الكون ؟ وهل يرتفع هذا المذهب بمعتقده الآرى الى منازل الرفعة ومكانات الشرف .

جاء القرآن الشريف ، وهو الكتاب المنزل بالاسلام ، يعيب على أهل الجبر رأيهم ، وينكر عليهم قولهم « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء » - بقوله « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا أن تتبعون الا الظن وان أنتم ألا تخرصون » وأثبت الكسب والاختيار فى نحو اربع وستين آية . وما جاء به مما يتوهم الناظر فيه ما يخالف ذلك فانما جاء فى تقرير السنن الالهية العامة المعروفة بنواميس الكون كما فى آية (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) الخ ونحوها .

والعاقل يرى الفرق الجلى بين مسألة اختيار العبد فى أفعاله وبين أثر القدرة الالهية فى أخلاق الأمم أو فى تغريز الغرائز مثلا . فاختيار العبد فى أفعاله مما يقر به الوجدان ولا ينكره الا من جهل نفسه ، لكن ما عليه الأمم من الاختلاف فى الطبائع والغرائز

والسجايا ليس لأحد من خلق الله فيه اختيار بل خلقه كخلق السموات والارض وما بينهما •

وجاء النبي صلى الله عليه وسلم في عمله وقوله بما يؤيد ذلك، فكان العامل الذى لا يكل ، والدائب الذى لا يمل ، والساهر الذى لا ينام ، والجاد الذى لم يبلغ شاوه أحد من الأنام ، هل نقل عنه أنه اتكأ يوما على وسادته واكتفى بالتسليم للقدر في اتمام دعوته قائلا : الذى كفل لى النصر يكفينى التعب ، وضمان الله لاعلاء كلمة دينه تغنينى عن النصب ؟ كلا بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة الا نشاطا ، ولا تجد العصمة الالهية من نفسه الا حزما واحتياطا •

جاء أصحابه على أثره وتبعهم من جاء بعده من السلف الأولين وكانوا أكمل الناس ايمانا باحاطة علم الله وشمول قدرته وأعرف الناس بقدر ما آتاهم الله من قوتى العقل والاختيار ، وكانوا أسوة في السعى ومثلا في الدأب والكسب حتى كان من آثارهم في نشر الاسلام ما يتألم منه اليوم هانوتو وأمثاله •

هذه هي العقيدة السامية أو الدعوة المحمدية أو المدنية الاسلامية ارتقت بأربابها وهم من أهل البداوة في قاصية من الأرض لم يتلمظوا بشىء من نعيم الحضر ، ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة ، حتى بلغت بهم ما بلغت واستوت بهم على عروش العزة والسلطان ، ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل مبلغا مكنهم من التلطف بالأمم حتى وقفوا على ما كان خفيا لديها ، وكشفوا ما كان مستورا عندها • واستخرجوا من كنوز معارفها ما ظهر فضله على الأوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية •

ولكن وا أسفاه نتأت رءوس بين المسلمين ، كأنها رءوس الشياطين ، واحتملت غثاء من قمش الآريين ، وقذفت به في الأرض الطاهرة فتدنس به أديمها ، وانتشر قذره ، وعظم ضرره •

جاء الموالى من عجم الفرس والروماں ولبسوا لبـاس الاسلام وحملوا اليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق وأحدثوا في الدين بدعة الجدل في العقائد ، وخالفوا الله ورسوله فى النهى عن الخوض فى القـدر ، وخدعوا المسلمين ببهرج القول وزور الكلام ، حتى كان ما كان من تفرقهم شيعا والله يقول لنبيه : (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) ·

وجد بين المسلمين طائفة تعرف بالجبرية ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة يقذفهـا الحق ، ويطردها العقل ، وينبذهـا الدين ، حتى انقرضت بعد ظهورهـا بقليـل ولم تبق بينهم بقـاء التوميين بين النصـارى · وغلب على المسلـمين مـذهب التوسـط بين الجبر والاختيار (١) ، وهو مذهب الجد والعمل وصدق الايمان ، وأخذه عن المسلمين في أخريـات الأيام أهـل النظر من النصرانيـة مثل « بوسويه » ومن مال ميله وتبعهم الجمهور الأعظم منهم ·

ولكن لا أنكر أن الزمان تجهـم للمسلمين كما كان قد تنـكر لغيرهم ، وابتلاهم بمن فسد من المتصوفة من عدة قرون ، فبثوا فيهم اوهاما لا نسبة بينها وبين أصول دينهم فلصقت بأذهانهم لاعلى أنها عقائد ولكنها وساوس قد تملك الجاهل وتريك العاقل اذا لم يغلبها بعوامل الدين الصحيح ، فنشأ الكسـل بين المسلمين ، يغشو الجهل بأصـول دينهم ، وعاون على ذلك ميل الأعلياء منهم الى توريطهم فيما هم فيه كما هو شـأنهم فى كل أمة ·

---

(١) اشتد النزاع بين طائفتى القدرية والمعتزلة أيام الخليفة المأمون العباسى وذلك في بداية القرن الثالث الهجرى (القرن التاسع الميلادى) · لقد قاوم أحمد بن حنبل (٧٨٠ ـ ٨٥٥ م) طائفة المعتزلة التى كان على رأسها الوزير أحمد بن أبي دؤاد ، فسجنه الخليفة المأمون ، وأفرج عنه الخليفة المتوكل العباسى · ولقد اتصف ابن حنبل بشدة تمسكه بالتقاليد القديمة وكتابه يسمى « المسند » وهو يشتمل على ثلاثين ألف حديث ·

وهذا الضرب من المتصوفة أيضا من حسنات الآريين ، فانه جاءنا من الفرس والهنود بما بقي فيهم من عقائدهم الأولى ٠

ما أضل هانوتو وأمثاله من قصار النظر الا أولئك الدراويش الخبثاء او البله الذين يغشون أطـراف الجزائر وتونس ولا يخلو منهم اليوم قطر من أقطار الاسلام ممن اتخذ دينه متجرا يكسب به الحطام ، وجعل من ذكر الله آلة لسلب الأموال من الطغام ٠

أما لو رجع المسلمون الى الحقيقة من دينهم لأدوا فرضهم ، واستنبتوا أرضهم ، واستغـزروا من الثروة ، وأعـدوا لغـرتسا ما استطاعوا من قوة ، واعتمدوا في نجاح أعمالهم على معونة القدر ، وأيقنوا في صولتهم علما أن ليس من الموت مفر ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها ، ونال ما ينال القوى من الضعيف ، والعزيز من الذليل ، ولا تقلب جنونهم لدى هانوتو عقلا ، وتحول هذيانهم حكمة وعلما ٠

هذا ما يتعلق برأيه الضئيل في مسألة القدر عند المسلمين ٠

والآن آتي على آخر القول لكسر شرة هانوتو في تهجمه على الاسلام ، وما نعني بالكلام فيه هو التوحيـد والتنزيـه وخصمـه التشبيه والتجسيد (الاعتقاد بتجسد الألوهية) ونبدأ بالكلام في الثاني ونختم بالحديث عن الأول ٠

ان كان مسيو هانوتو قـرأ شـيئا في أحوال الأمم ونشـأة العقائد ، وعقله يعلم أن الوثنية وتوهم السلطان الالهي ظاهران في بعض الموجودات المادية كانت عقيدة الواقفين على أبواب الانسانية لم يدخلوها ولم يتوسطوا منازلها وكانت لا تزال دليلا على انحطاط عقول أهلها مع تفاوت في درجات ذلك الانحطاط تبتدىء من وثنيي أفريقيا وتنتهي الى بوذيي الصين وبرهمن الهند ٠

كلما ارتقى الانسان في العلم ، ولطف وجدانه بالفهم ، ونفذ عقله في أسرار الكون ، تمزقت دون روحه حجب المادة ، وانجلى له

الوجود الأعلى على تفاوت كذلك فى درجات الظهور والانجلاء ، تنتهى الى الاعتقاد بوجود واحد واجب يستحيل عليه أن يلبس لباس المادة على النحو الذى يقظنه مسيو هانوتو وامثاله لأن ما لا حد له محال ان تحيط بوجوده المحدود ٠

وقد كان هذا شأن اليونانيين الذين يفتخر هانوتو بمدنيتهم ، نشئوا وثنيين ولازالت الوثنيـة ترق وترث بارتقائهم فى العلوم ، وبحث فلاسفتهم فى طبائـع الكائنـات حتى انتهوا وهم فى ذرى مدنيتهم الى التوحيد وتنزيه واجب الوجود عن مخالطة المادة ٠ وقف فيثا غورس على عتبة التقديس وجاء بعده سقراط وافلاطون وارسطو مجاهدين فى كشف الغمة عن عيون شعوبهم باذلين الوسـع فى محو ما غشى نفوسهم من ظلمات الوثنية الاولى ، ومن قرأ جمهورية أفلاطون التى نقلت الى العربية أيام المأمون تحت اسم (المدينة الفاضلة) علم كيف كان يقارع أفلاطون ما بقى من آثار الوثنية من الآراء السخيفة والعادات الردئية التى كانت تحول بين الأمة اليونانية وما ينبغى لها من الفضائل التى كان يطمع الفيلسوف أن تكون عليها ٠

وبعد أن أوصلهم العلم الى التوحيد لم يرتد بهم التنزيه الى الجهل ، بل بقيت شمس مدنيتهم تشرق فى العالم قرونا متعددة وكانت أشد بهاء وأبهر سطوعا ٠

كذلك قدماء المصريين لم يقف بهم العلم دون التوحيد ، غير أن رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم واستبقوا صور العبادات الأولى والبسوا التنزيه ثوب التشبيه استئثارا منهم بشرف العقيدة على من دونهم ٠

فترى ضعف العقل وقلة العلم ونقص الادراك تقف بصاحبها عند الوسائط ، وقوة العقل ونفوذ البصيرة ، وسعة العلم تصعـد بأهلها الى مشهد الوجود الأعلى وتشرق بهم من هنـاك على العـالم

بأسره ، فيرون عظيمه وحقيره سواء في النسبة الى تلك القدرة الشاملة والعظمة الغالبة ـ الفاضل والمفضول والفروع والأصول ، وما ظهر للابصار وما نفذت اليه العقول ، كل ذلك يستمد وجوده من مشرق الوجود على مراتب قدرتها الحكيمة ، وتمت بها النعمة ، فأى مقام أعلى من مقام صاحب هذه العقيدة حيث قام شاهدا على الكون بجملته ما فصل منه فى فهمه ، وما اجمل فى كليات علمه ، يحكم عليه بأمر مربوب لرب واحد هو رب العالمين ، وأن لا سلطان لشيء من هذا جميعه على نفسه لا فى الايجاد ولا فى الامداد ، بل هو وحده يمكنه بما سن له الشرع الالهى أن يصل بنفسه الى تلك الحضرة وأن يستمد منها المعونة فى كل شئونه ·

ينقسم أهل التشبيه الى قسمين : أحدهما من يعتقد الالوهية فى بعض الموجودات المشهودة ويقف عندما يعتقد منها ، والآخر يعتقد بأن بارى الكون يظهر فى بعضها ·

أما الأولون فهم الذين ضعف الادراك فيهم عن الاحاطة بحقائق الأكوان ، فاذا ظهرت عليهم آثار قوة من القوى أو سلطة حيوان من الحيوانات ظنوا ما ظهر المنفرد بالقدرة عليهم ، وانهم اليه يرجعون فى جميع أمورهم ، فهؤلاء يسلطون على أنفسهم ما شاءوا وشاء لهم الجهل من جماد وحيوان وانسان ، ولا ·الون حيارى فى شئون حياتهم حيرتهم بين معبوداتهم ثم هم يقيسون معبوداتهم بأنفسهم لأنها لكنست بأبعد منهم فى النوع أو الجنس ويقدرون لها رغائب وشهوات تفوق رغائبهم وشهواتهم ، يسارعون فى ارضائها بما يعن لهم وكما تشرعه لهم أهواؤهم · ومن ذلك كانت ترتكب القبائح فى هياكل الآلهة وتنتهك حرمات الفضائل فى محاريبها وتفترس الذبائح الانسانية بين يدى التماثيل الحجرية ، وأى درك ينحط اليه الانسان أنزل من هذا ، وأمر ذلك معروف فى التاريخ ولا تزال مشاهده الى اليوم معروفة ·

اما الآخرون فهم أرقى درجة من أولئك في الادراك ولكن ماذا أصابهم ويصيبهم من ذلك الاعتقاد ؟ كانوا اذا فاقهم انسان في عقل أو شجاعة أو صدر منه مالا يألفون من الأعمال أو ظهر بما لا يعرفون من الأحوال ظنوه مظهرا للوجود الالهي فدانوا لسلطانه ، واستكانوا لقهره ، وأخذوا أنفسهم بالخضوع لارادته فسلبهم كل ما كانوا يملكونه من عقل وارادة وعزم ، وحق عليهم الصغار ماداموا على تلك العقيدة .

وقد سهل هذا الوهم على كثير من أهل الدهاء أن ينزلوا من الناس منازل الآلهة طمعا في استعبادهم . وكم قاست الأمم من الرزايا التي جلبتها عليهم هذه العقائد الضالة .

ويقرب من هؤلاء قسم ثالث ليس بخير من القسمين الآخرين وهم المعتقدون بالوسائط . ما قدروا الله حق قدره فقاسوه على الكبراء وأهل السمو منهم فظنوا أنه في ملكوته ، كملك في جبروته ، يصطفي لنفسه مدبرين من خلقه ، ويستصنع عمالا للتصرف في شئون عباده ، فاذا امتاز أحدهم بما يعتقدونه زلفى الى الله ، أو صدر منه ما يظنونه دليلا على أنه من المقربين اليه رفعوه الى تلك المنزلة — منزلة الاصطفاء للتصرف في الكون ، فاتخذوه شفيعا لديه يلجئون اليه في مهمات أعمالهم ويستجدون منه المعونة بماله من الدالة على ربه . واذا سئلوا عما يفعلون وما به يدينون ، قالوا « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » .

ماذا أصاب هؤلاء من شر ما اعتقدوا ؟ استعبدوا للسادن والكاهن والزعماء ووارثيهم واستسلموا لهم في جميع شئونهم ، فكانت علومهم من أوهامهم ، وأفهامهم واقفة عند خيالاتهم ، ينكرون الأوليات من المعلومات ، اذا توهموا أنها تخالف تلك الموهومات التي تلقوها من زعمائهم . ثم كانوا يتركون وسائل العمل اتكالا على ما يستمدونه منهم ، ولا يزال التاريخ يشهد على ما قاسته

الانسانية من بلايا هذه العقائد ، والعيان يؤيده في كثير من الأمم في الشرق والغرب الى اليوم •

هذه مفاسد الوثنية وما جاورها ، لا ينكرها مطلع على مبادىء العلوم الصحيحة بل يعرفها كثيرون من العامة الذين لم ينشئوا في جوها الفاسد •

أما زعم هانوتو أن وثنية اليونانيين كانت ترتقي بالأفراد في سلم الفضائل طمعا في نيل مرتبة الألوهية فهو زعم لم يقل به من المسيحيين سواه فيما أعلم • ولم يقل أحد من اليونانيين أنفسهم أنهم كانوا يسعون في كسب الفضائل من طريق التوصل الى مقام الألوهية ، ولا أن الألوهية البشرية تركت فيهم أثرا صالحا بل لم تورثهم الا تلك الرذائل التى قام سقراط وأفلاطون لمحاربتها • أما السعي الى الفضائل فكان للتقرب لأربابها كما هو معلوم •

أما حكمه على المسيحية بأنها من ناحية الديانة اليونانية فذلك أدع الكلام فيه الى المسيحيين أنفسهم • ولكنى أقول أن المسيحية بذلت وسعها في بداية أمرها لتطهير الأرض من الوثنية التى كان الناس عليها في عهدها ، وجاهدت من تلوث بعقائدها من اليهود والرومانيين ، وانبث رجالها بين الوثنيين يدعونهم الى الاله الواحد ، وكان التنزيه قوام دعوتهم كما يعلمه المدقق في فهم كلامهم ، ولم تظهر آثار التشبيه فيها الا بعد قرون من نشأتها ، وتاريخ الامبراطور قسطنطين (١) معروف عند أهل التاريخ وغيرهم ولا حاجة الى تفصيل ما كان منه •

---

(١) الامبراطور قسطنطين امبرطور الرومان منذ عام ٣٠٦ م • أول من اعترف بالدين المسيحى كدين قائم مثل باقي الديانات الوثنية وغير الوثنية • ويقال أن سبب ذلك الاعتراف انه وهو يشق طريقه من غرب أوربا الى العرش الامبراطورى ، ليقضى على منافسه على العرش الامبراطورى واسمه ماكسنتيوس ، شاهد علامة الصليب في السماء ومكتوب عليها هذه الجملة : « بهذه العلامة ستنتصر » لذلك

ثم لما امتد الغلو في التشبيه ، ظهرت المظـالم ، وعظمت المغارم ، واختفى العلم ، وخسيء العقل ، وتهدمت أركان النظام ، واستشرى الفساد في الأمم النصرانية ، حتى ظهر الاصلاح وقضى على ما سبقه ، واستقامت أوربا في طريقها المعروفة اليوم ، وقد أشرنا الى شيء من أسباب ذلك ٠

لم نسمع أن أحدا من المسيحيين يعبد الله لينال رتبة المسيح فيكون الها بشرا كما يؤخذ من عبارته ٠ ولم نر أثرا لأحدهم يدل على أنه عقل عقيدة التثليث على هذا النحو الذي ذكره ٠ ولكنهم يصرحون بأنها عقيدة لا مجال للعقل فيها ، فلا مكنة له في أن يحتذيها ٠ وقد قامت طوائف منهم في أزمان مختلفة تصرح بأن هناك فرقا بين ما لا يصل اليه العقل وما يناقض حكم العقل ، وذهبت الى أن المسيح لم يكن الا نبيا مختارا بعثه الله لخلاص البشر من سلطان الشيطان وحملوا الابن على المصطفى (المختار) والأب على الرب الرحيم ٠ وأعرف أن بعض طوائف البروتستانت اليوم ، وان كانت قليلة العدد ، تذهب الى تأويل الكلمة بالعلم وروح القدس بالحياة ، وقد لاقيت بعضهم في بعض أسفاري وأكد لي أن لهم شيعة تدين بذلك ٠

وهل كانت المسيحية في سالف الأزمان تجاهد من حولهـا من الوثنين لتخرجهم من وثنية الى وثنية ؟ نعوذ بالله من هذا الخبط الصادر من محب غير عالم ٠

اني أرفع أدبا من أن أطعن في عقائد المسيحية في جريدة ، وقد أمرت أن أجادل بالتي هي أحسن ٠ ولكنى أرجع الى الكلام في الآثار التي عنى هانوتو باتخاذها دليلا ٠

أصدر « مرسوم ميلان » عام ٣١٣ م باعترافه بهذه الديانة ٠ ولقد نقل عاصمة الامبراطورية ، من روما الى بيزنطة لتكون عاصمة مسيحية خالصة ٠ وقد أطلق عليها القسطنطينية نسبة اليه ٠

جاء الاسلام يدعو العالم بأسره الى التوحيد ، وصرح بأن دين التنزيه هو دين الله من لدن أدم ونوح وابراهيم الى موسى · ثم هو دين الأنبياء بعد موسى ودين خاتم رسل اسرائيل عيسى عليه السلام ، ولم ينكر ان في اليهود وفي المسيحيين خصوصا أهل تنزيه ، وذكر أن منهم من مال الى التشبيه ودعاه الى الرجعة الى أصل دينه حتى يقوم بالعبادة لله وحده ويعتق من سلطة الرؤساء والزعماء الذين اغتصبوا عقله وملكوا هواه وهمه ··

هبت الوثنية واليهودية والنصرانيـــة لمناواة الاسلام وكانت اكثر عددا وأوفر عدة وأعظم قوة وأشد بأســا ، فلم يكن الا قليل من الزمن ثم ظهر الحق ونفذ شـعاعه الى القلوب ، فدخل الناس فيـه أفـواجا من كل ملة ، فاعتقت الهمم ، وأفتكت العزائم من أسرها ، وأخذ كل يطلب من الكمال ما بعده له استعداده الممنوح له من واجب الوجود ، وأخذ المعتقدون بالتوحيد والتنزيه يشرفون من شرفات الايمـــان على أسرار الوجـــود ، ومزقوا تلك الحجب والأوهام ، واتصلوا بمنابع العلم من الفكر والنظر والدين · ولم يكد أهل الملة يستريحون من الشغب الذي هبت ريحه بينهم حتى سطعت أنــوار العلم فيهم ، ولو يبق باب من أبوابه الا دخلوه ، ولا مرتقى من مراقيه الا علوه ، ولم يبق متروك من مخلفات اليونان والفرس والرومان الا استخرجوه من زوايا النسيان وجلوا صدأه وابرزوه للأنظار ·

هذا أثر الاســلام وهو دين التنزيه ، ولم يكد ينتهى القرن الثانى من ظهوره حتى جال المسلمون في علوم السموات والأرض وصححوا الأغاليط ، ونقحوا القواعد ، وحرروا الأصـــول · وفى مفتتح القرن الثالث أقاموا المراصـــد ، ومسحوا الأرض وأتوا فى ذلك بما هو معهود لأهل العلم فى ديارنا وديار مسيو هانوتو ·

انى أكتفي فيما يقابل هذا بقول جماعة من أهل النظر فى الأمم الغربية اليوم : أقامت النصرانية في الأرض ستة عشر قرنا

ولم تأت بفلكي واحد ، وأخذ المسلمون يبحثون في هذه العلوم بعد وفاة نبيهم ببضع سنين ، ومع هذا لا يعد ذلك طعنا في أصـــول الديانة المسيحية وانما هو طعن في تصرف القائمين عليها والمحرفين لها عما جاءت له ٠

يظن هانوتو أن الاسلام قطع الصلة بين العبد وربه ولكنه وهم في ذلك فان الاسلام أفضى بالعبد الى ربه وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبيعه رضـــاه ــ قضى الاســلام بألا يكون للكون الا قاهر واحد يدين له بالعبودية كل مخلوق ، وحظر على الناس مقامين لا يمكن الرقي اليهما ــ مقام الألوهية التي تفرد بها ، ومقام النبوة التي اختص بمنحها من شاء ثم أغلق بابها ، وما عدا ذلك من مراتب الكمال فهو بين يدي الانسان ، ويناله استعداده ، لا يحول دونه حجاب الا ما كان من تقصيره في عمله أو قصوره في نظره ٠

اذا اعتقدت بقصـــور فضـــل الله عنك وقفت نفســك حيث وضعتها ، ولن تستطيع الى التقدم سبيلا ٠ هكذا يرفع الاســـلام الصحيح نفس صاحبه ، وهذا هو معنى الاسلام والاستسلام الذي أخطأ في فهمه مسيو هانوتو ، فهل بقي الانسان مع هذا المعنى من الاسلام في درك من الحيوانية وفي هجرة عن التوسل بالأسباب الى مسبباتها في كسب الفضائل والكمالات ؟

يجب على الباحث في الاسلام أن يطلبه في كتابه ، كما يجب عليه أن يطلب آثاره ، والاسلام اسلام والمسلمون مسلمون ٠

من أين أتى المسلمون وكيف دخل عليهم في عقائدهم التشبيه ، وفي عوائدهم التمويه ، وممن تعلموا الاختراس ، وعمن أخذوا الضراء بالشـــهوات ؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون والله من ورائهم محيط ٠

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى سقطوا فى مساقطهم ، وطارحوهم الأوهام حتى انجروا الى مطارحهم ، وباءوا بما كان لهم وما عليهم .

حدثت فى الدين بدع أكلت الفضائل ، وحصدت العقائل ، وترامت بالناس الى حيث يصب عليهم ما استفرغه (كيمون) .

أما لو رجع المسلمون الى كتابهم ، واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم ، لسلمت نفوسهم من العيب ، وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله اليه فى تنزيله وعلى لسان نبيه ، ومهده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم ، واستجمعت لهم القوة ، ودبت فيهم روح الفتوة ، وكان ما يلقاه هانوتو وكيمون من دين صحيح ، شرا عليهما مما يخشون من دين شوهته البدع .

يرى كيمون أن يخلى وجه الأرض من الاسلام والمسلمين ، ويستحسن رأيه هانوتو ، لولا ما يقف فى طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين ، وبئسما اختارا لسياسة بلادهما ان يظهر ضغنهما ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما .

الا فليعلما وليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما أن الاسلام ان طالت به غيبة ، فله أوبة ، وان صدعته النوائب فله نوبة . وقد يقول فيه المنصفون اليوم من الانكليز مثل اسحاق تيلر وهو قس شهير ورئيس فى كنيسة :

« انه يمتد فى أفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والاقدام من أنصاره » .

ويأسف أشد الاسف من أن السكر والفحش والقمار انتشرت بين السكان بانتشار دعوة المبشرين بينهم ، وقال « انه يختار اسلاما لا سكر فيه على مسيحية فيها سكر » .

ثم هو لا يزال ينتشر في الصين وغيره من أطراف آسيا ، وسترشده الحوادث الى طريق الرجوع الى طهارته ، وتنثني به الملمات الى ما كان عليه لأول نشأته ، وتدرك عند ذلك الأمم منه خير ما ترجو ان شاء الله •

لو أسلمت الأمة الفرنسية بأسرها وفي مقدمتها مسيو هانوتو وكانت معاملتها لغير الفرنسيين على ما نعهده في الجزائر ومدغشقر ، هل ترجو من سكان مستعمراتها أن يميلوا اليها والا ينتهزوا الفرص للثورة عليها ؟ كلا ، فما ظنك بالمسلمين وهم يسمعون قصف هذا الرعد ولا يرون من المتغلبين عليهم الا الجد في أهلاكهم والدأب في أخفائهم •

ان العدل ورعاية الحقوق واحترام المعتقدات بعد معرفة أصولها هي التي تخفف على المغلوب سلطة الغالب وتدنو به منه وتهون عليه الرضاء عنه ، ولكن هانوتو وأترابه من ساسة الفرنسيين لا يعرفون شيئا من هذه الاركان الثلاثة ولا يزالون يهرفون بما لا يعرفون حتى يصلوا الى ما كانوا يحسبون فلينتظروا أنا معهم من المنتظرين •

هانوتو والاسلام

رد الامام الثاني على هانوتو وفيه بحث الجامعة الاسلامية

القت الى المصادفة نسختين من احدى الجرائد المشهورة فى القطر المصرى جاء بها حديث بين صاحب الجريدة ومسيو هانوتو صاحب الفصول المعروفة فى الاسلام .

ولم أشك فى أن كثيرا مما جاء فى هذا الحديث صادر عن رأى مسيو هانوتو ، لأنه لا يصدر الا عن عارف مثله بأحوال أوربا وكثير من أحوال الشرق ، ولهذا رأيت أن حرمانه من حظ النظر فيه ، وتركه يمر بلا مناقشة معه فى بعض ما تضمنه يعد ظلما وجورا عليه ، خصوصا ونسبة القول اليه مما يدع فى أذهان الناس أثرا لا يحسن السكوت عنه .

وقد جاء فى كلامه ما يدل على أنه قد أصيب بشىء من سوء الفهم فى أحوال المسلمين ، وما انبعثت اليه نفوسهم اليوم . وسوء الفهم منشأ الشقاق والخصام بين أهل المقصد الواحد كما ذكر حضرته فى مقال له سابق . فلا يليق بذى غيره على الحق الا يوفيه من الاعتبار ما يستحق ، وأرجو أن يترجم ما أكتبه فى جريدة المؤيد الفرنسية وأن يرسل الى مسيو هانوتو ليقف على ما غاب عنه من مقاصدنا وأفكارنا .

ان كان المسلمون اليوم ينتفعون بشىء ويعتبرون بمثال . لم يكن أنفع لهم من الاعتبار بما جاء فى كلام مسيو هانوتو . فقد

ارشدهم الى عيوب فيهم لا يسعهم انكارها ، وهداهم الى مقاصد لطلاب الاستعمار في ديارهم قد شهدوا بالعيان آثارها ، وصرح لهم بأن الاعتماد على العدالة فى معاملة الدول ضرب من الخبال ، وعقد الآمال بانصاف الأمم تلمس للمحال ، وما على المهتم بحماية ذماره ، وطالب الطهر من عاره ، الا ان يدركهم ويعمل عملهم ، ليبلغ من الحول حولهم ، فيفوقهم فى القوة أو يكون مثلهم ، فيتعارض فى المنافع معهم معارضة المالك مع المالك ، لا أن يتسلى بالاعاليل ، ويلهو بالأضاليل ، ويقنع بالأماني ، ويكتفى من العمل بالصوت الجهوري واللفظ الطلي ، وهو من روح قائله خلي ، حتى اذا دهموه وهو فى غفلته واخذوه في نومه أو يقظته ، بسط يده يلتمس الرحمة منهم ، ويرقب أن يفيض عليه سيب العدل عنهم ، فهذا عمل الجاهل الأحمق ، وهو بالذلة والاستعباد أحق ٠

وهي نصيحة يجب على المسلم قبولها من أجنبي منه ، وكان يجب عليه من قبل أن يقبلها من أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، فقد قال لخالد بن الوليد حين ارسله لحرب اليمامة « حاربهم بمثل ما يحاربونك به : السيف بالسيف والرمح بالرمح » ٠

ولا يخفى ان كل نزاع فهو حرب ، وكل منافسة فيما هو عماد الحياة فهى جلاد ، وكل عمل يأتيه أحد المتنافسين للظفر بمنافسه فهو جهاد ، وكل وسيلة تظفره بطلبته فهى سلاح ، وكل تجاذب أو تدافع بينهما فهو كفاح ، وكل منفعة حفظها أو استخلصها منه فهي غنيمة ، وكل انخذال عن حق أو تفويت لمصلحة فهو هزيمة ٠

فالظافر فى ميدان المنافسة من كان رايه أسد ، وقوته أشد ، وسلاحه أحد ، فاذا قربت القوتان من التكافؤ أمكن بمصالح المتنافسين أو تتفق ، وسهل على كل منهما أن يرتفق ، والا استحال الاتفاق ، واستبد القوى بالارتفاق ، بل صعب على الضعيف أن ينال حق البقاء ، سنة الله فى عالم الاحياء ٠

وقد فصل مسيو هانوتو ما أجمله بعض أساتذتنا فى قوله (العدل تكافؤ القوى) ·

صرح مسيو هانوتو بأن أوربا بعد أن كانت لا تشتغل الا بما يجرى فيها ، اندفعت الى الاستعمار ولا يردها عنه الا قوة الأمم التى تأبى الاستعمار فيها · وضرب المثل باليابان فانها بما ارتقت فى المدنية ، وما أصلحت من شئونها الداخلية ، وأعدت لوقاية مسالكها ، وحماية مسالكها ، قد آذنت أوربا بقوتها ، وحملتها على الاقرار بمكانتها ، فحمت بلادها ومصالحها من صولتها ، وأمكنتها ببرهان القوة أن تؤلف بين منافعها ومنافع الأوربيين ، وهو قول حق ، وكان على المسلم أن يعرفه من قرون ، وله فى كتابه المنزل خير هاد وأرشد مرشد ، وكان يكفيه منه آية « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فقد دعته الآية الكريمة الى الأعداد ، وطالبته ان يبلغ منه حد المستطاع ، ولا حد لما تستطيعه أمة اذا صرفت قواها العقلية والجسدية فيما حيثت له ، وأطلقت له القوة ، وهى كل ما يقوى به خصم على خصم ، ويقتدر به على حماية نفسه وحوزته من اعتداء معتد ، أو يستطيع به استخلاص حق من يد مغتصب ، وخير القوى ما حفظ بـه الحق ، وعظمت به المنفعة ، ووقف لهيبته كل من المتنافسين عند حده ، حتى يستقر السلام بينهم ، وتشمل الطمأنينة نفوسهم ·

وقد تألفت قوى الأمم الأوربيـة من عناصر هى العلم والأدب والتجارة والصناعة والعدل والدين والسلاح · وذكرت الدين فى جملة عناصر القوة لأن مسيو هانوتو لا ينكر أن أوربا تعتمد على الدين فى سياسة الاستعمار ، وان المرسلين والجمعيات الدينية من أهم الوسائل لديها فى اعداد الشعوب الى قبول سلطانها عند سنوح الفرص لسوقه اليها ، وتهيئة نفوس الأمم لاحتمال ما ينقض به ذلك السلطان متى أظلهم ، وفى فتح المغالق التى لا يستطيع السلاح وحده ان يفتحها ، وتمهيد السبل التى لا يمكن لساعد الجندى وحده

أن يمهدها • وهو من الأمور المسلمة التي لا يجادل فيهـا عارف مثل هانوتو ، فلا حاجة للاطالة فى بيانه غير انى أذكر قصة كنت شاهدتها لا بأس بذكرها فى هذا المقام :

تعلم أحد ابنـاء لبنـان من بـلاد سوريا فى بعض مدارس الجمعيات الدينية الفرنسية فى تلك البلاد ، واخذ عن اساتذته كثيرا من آدابهم ، وطالع عددا من مؤلفات كتابهم ، وامتلأ قلبه بحب فرنسا ، واستقر فى ذهنه أنها منبع نور العلم والحرية ، وانهـا محررة العـــالم أجمع من رق الاستبداد ، ثم انتقل لكتب بعض الفلاسفة الفرنسيين ومؤلفـات بعض السياسيين ، فعظم عنـده الاعتقاد بأن هذه الأمة الجليلة انما يهمها فى سياستها أن تنشر المعارف فى العالم لتهذيب العقول ، وتكميل النفوس ، لتربيتها على اصـــول العقل وحرية الفكر ، ورأى أن من الزلفى عند الحكومة الفرنسية أن يذهب الى باريس ويسألها المعونة على انشاء مدارس فى جبل لبنان ، يبنى التعليم فيها على تلك الأصول السابقة ، فذهب الى باريس سنة ١٨٨٤ ، واتصل بأحد أذكياء الســوريين الذين طاب لهم المقام فى البـلاد الفرنسية وطلب منه أن يكون وسـيلته فى نيل ما يرغبه من معونة الحكومة ، فسعى الذكى سعيه ، ثم عاد الى صاحبه وقال ان ما تخيلته ضرب من الوسواس وأن الحكومة الفرنسية وان كانت تطرد الجزويت من بلادها ، وتنازع الكنيسة فى سلطتها ، لكن سياستها فى الخارج دينية محضة ، ويمكن أن تعرف ذلك من حمايتها للجزويت وأعانتهـا لهم بالمال والقوة فى بلادك •

فان كنت تريد انشاء مدارس دينية فى بلاد لبنان كان أملك فى المساعدة قريبا ، والا فارجع واشتغل بما يصلح شأنك الخاص بك • فرجع الشاب بالخيبة بعد ما اقام مدة صرف فيها ما كان عنده من النقود ، ولم يجد من يساعده على الرجوع الى بلده الا من

رحمه من أصدقائنا اذ ذاك ، وكان لى حظ فى مساعدته • كما كنت شاهدا الحديث الذى رويته •

فان لم يسع المسلم بعزم ثابت في تحصيل هذه العناصر التى سبق ذكرها ، أو تقوية ما ضعف عنده منها وهو مسلم ، كان مخالفا لكتابه ولقول الصديق رضي الله عنه ، ومستحقا للوم مسيو هانوتو ، ولم تتفق له مصلحة مع مصالح الأوربيين الى يوم القيامة •

بقى على الكلام مع هذا الوزير فى أمرين : الأول فيما فهمه من شأن المسلمين فى هذه الأيام ، وما يسمونه دعوة الى توحيد كلمة المسلمين قاطبة ، وجمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد • والأمر الثاني سوء ظن أكثر المسلمين بالسياسة الأوربية ، بل بالمسيحيين أجمع ، حتى وصل فقد الثقة بهم الى الا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا فى عمل من أعماله ، وان أخلص لهم الخدمة كما سمعه من صاحب هذه الجريدة الناشرة الحديث ، وغيره •

شأن المسلمين اليوم وظهور دعوة فيهم الى توحيد كلمة المسلمين وجمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد فى جميع البلاد الاسلامية •

اؤكد لمسيو هانوتو أن هذه الدعوة لم يوجد لها أثر الى اليوم فى بلد من بلاد المسلمين ولو خطا خطوة الى معرفة أحوالهم على ما هى عليه ، لما خطر بباله أن يشير الى هذه الدعوة فضلا عن أن يبنى عليها حكما ، وان ما علق بالأوهام منها فانما منشؤه سوء فهم بعض مسيحي الشرق ثم انعكاس ذلك فى أذهان سياسى الغرب ، وقد يكون لسوء نية بعضهم مدخل فى تعظيم ما توهم فيها•

وانى أعرض الحقيقة كما هي لا يغشاها ستار من تمويه ولا غطاء من تلبيس ، وأرجو أن يكون فى هذا البيان ما يقنع مسيو هانوتو بحسن مقاصد المسلمين اليوم فى كلامهم عن الدين وما يرد

امثال صاحب الجريدة التى نشرت حديثه الى رشدهم حتى يتقوا الله فى أنفسهم وأهل بلادهم ، ولا يتخذ بعضهم من المسلم حربا ولا من السكون شغبا ٠

لا انكر أن طائفا من الدين طاف فى هذه السنين الأخيرة بعقول بعض المسلمين فى أقطار مختلفة من الأرض ، وان نسمة من نفس الرحمة مرت بانفس قليل من أهل الفضل فيهم فحركت ساكنهم ، وأثارت هممهم الى النظر فيما كان عليه أهل هذا الدين ، وفيما صاروا اليه ، وان منهم من يتكلم بما يرى اذا وجد سبيلا الى الكلام، ومنهم من ينشر رأيه فى كتاب أو جريدة اذا تهيأت له الوسائل لذلك ٠ ثم يوجد مقلدون لهؤلاء يقولون ما لا يعلمون ، ويهرفون بما لا يعرفون ولا كلام لنا فى هذه المقلدين ، وانما كلامنا فيما يرمى اليه غرض أولئك الناظرين ٠

ظهر الاسلام لا روحيا مجردا ، ولا جسدانيا جامدا ، بل انسانيا وسطا بين ذلك ، آخذا من كل القبيلين بنصيب ، فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره ، ولذلك سمى نفسه دين الفطرة ، وعرف له ذلك خصومه اليوم وعدوه المدرسة الأولى التى يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية ، ثم لم يكن من أصوله « أن يدع ما لقيصر لقيصر » بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله ويأخذ على يده فى عمله ٠ جاء هذا الدين على الوجه الذى ذكرنا فهدى ضالا ، وألان قاسيا ، وهذب خشنا ، وعلم جاهلا ، ونبه خاملا ، وأثار الى العمل كسلا ، وأقدر عليه وكلا ، وأصلح من الخلق فاسدا ، وروج من الفضيلة كاسدا ، ثم جمع متفرقا ، ورأب متصدعا ، وأصلح مختلا ، ومحا ظلما ، وأقام عدلا ، وجدد شرعا ، ومكن للأمم التى دخلت فيه نظاما امتازت به عن سواها ممن لم يدخل فيه ، فكان الدين بذلك عند أهله كمالا للشخص ، وألفة فى البيت ، ونظاما للملك ٠ وظهرت به آثار النعمة عليهم فى جميع

شئونهم ، ولم يفت العلم حظ من عنايته • بل كان قائده في جميع وجوه سيره ، فان شاء قائل أن يقول ان الدين لم يعلمهم التجارة ولا الصناعة ولا تفصيل سياسة الملك ولا طرق المعيشة في البيت لم يسعه ان ينكر أنه أوجب عليهم السعي الى ما يقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية ، وأوجب عليهم أن يحسنوا فيه ، وأباح لهم الملك ، وفرض عليهم أن يحسنوا الملكة ، وما ظنك بدين يقول خليفته الثاني وهو المدينة من بلاد العرب « لو أن سخلة بوادى الفرات أخذها الذئب لسئل عنها عمر » ويقول الخليفة الرابع « أقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم في خشونة العيش ؟ أي خشونته » يريد بذلك أن يساوي المساكين في العيش ليكون قدوة الأغنياء في الاحسان وأسوة الفقراء في حسن الصبر •

هكذا كان الاسلام مهماز للمسلمين يحثهم الى جلائل الأعمال ، ومصباحا لبصائرهم يسترشدون به في استغراق الأحوال وتقويم الأفكار ، وعاطفا يعطف قلوبهم على الأمم بالعفو والمرحمة وحسن المعاملة ، حتى رضيتهم الأرض سادة لها وقادة لسكانها ، وكان من أمرهم وأمره ما هو معلوم •

أفبعد هذا يعجب عاقل اذا رأى المسلم يرضى مارضيه هذا المرشد الحكيم ويمقت ما مقته ؟ أيدهشه أن يرى المسلم يهزأ بكل مالم يعتقده سائغا في دينه ، وان كان فيه ملك الأرض أو ملكوت السموات ، بعد ما شهد المسلم من أثر نعمة الله عليه في هذا الدين ما شهد ؟ لا عجب في ذلك فانه نتيجة ضرورية ، ينساق اليهاالأمر بنفسه بحكم سنة الله في خلقه •

وأأسفا !! لم يبق للمسلم من الدين الا هذه الثقة فيه ، أما الدين نفسه فقد انقلب في عقل المسلم وضعه ، وتغير في مداركه طبعه ، وتبدلت في فهمه حقيقته ، وانطمست في نظره

طريقته ، وحق فيه قول علي كرم الله وجهه « ان هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوبا » ·

لا أبحث اليوم في الأسباب التي وصلت بالدين في نفس المسلم الى ما ذكرت ، ولكن أقول ولا أخشى منكرا لما أقول : قد دخل على المسلم في دينه ما ليس منه ، وتسرب في عقائده من حيث لا يشعر ما لا يتصل بأصلها بل ما يهدم قواعدها ويأتي على أساسها · عرضت البدع في العقائد والأعمال ، وحلت محل الاعتقاد الصحيح ، واخذت مكان الشرع القويم ، وظهرت آثارها في أعماله ، وعم شؤمها جميع أحواله ·

ان صح لفظ الحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » أو لم يصح ، فالقرآن يؤيد معناه ، وعمل الأولين من المسلمين يحقق صحة ما حواه ، فالرجل والمرأة سواء في الخطاب التكليفي ، وكانا سواء في علم ما يجب عليهما من فرائض الاسلام ، وخصال الايمان ، وفي طلب العلم مايلزم لصلاح معادهما ومعاشهما، وبما تحسن به المعاملة مع من يتصل بهما قرب أو بعد على تفصيل معروف في كتاب الله وسنة رسوله وعمل الصالحين من بعده . حتى لم يبق باب من أبواب العلم الا دخل منه بقدر الاستطاعة وما يسمح الزمان · ضل المسلم بعد ذلك في معنى العلم ، فظن الرجل أن غاية ما يفرضه الدين منه معرفة فرائض الوضوء والصلاة والصوم في صورة ادائها ، أما ما يتعلق بسر الاخلاص فيها ووسيلة قبولها عند الله فذلك مما لا يخطر له ببال الا القليل النادر ، أما آداب الدين وتهذيب الروح واستكمال الخصال الجليلة مما جعله الاسلام غاية العبادات وثمرة الأعمال الصالحات فهو مع أنه أهم علوم الدين مما لا تتوجه اليه عزيمته ، ولا تنصرف نحوه ارادة ، اللهم الا من أشخاص قلائل منثورين في أطراف الأرض لاترقى بهم

أمة ، ولا تسمو بهم كلمة ،أما من ينقطعون لطلب العلوم ليحصلوا جملة منها فقد انقسموا الى فريقين :

الأول من يظن أنه وارث علوم الدين والقائم بحفظها ، وقد قل أفراده في معظم البلاد الاسلامية ، ولم يبق منه إلا رسوم لايكاد يدركها نظر الناظر ، والمشتغلون منهم في بعض البلاد كمصر والاستانة فانما حظ الذكي منهم وقليل ما هو ، أن ينظر في كتب مخصوصة عينها له الزمان وضعف العرفان ، ويفهمها بمعنى أن يثق بأن هذا اللفظ دال على ذاك المعنى ، ومتى تم له ذلك فقد استكمل العلم سواء سلم له عقله ودينه وأدبه بعد ذلك أم لم يسلم، فكان مثلهم مثل من ورث سلاحا ، فكان همه أن ينظر اليه ويملأ عينيه منه ، ولا يمد يده اليه يستعمله أو يزيل الصدأ عنه ، فلا يلبث أن يأكله الصدأ ويفسده الخبث . ويزعمون أن الدين يصد عما وراء ما عرفوا من العلوم النافعة ، ومن رأى هؤلاء أن لا شأن لهم مع العامة ، ولا يجب عليهم أن يأمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر ، وقد ارتكبوا بذلك خطأ في فهم دينهم لا يساويه في سوء عاقبته خطأ ، وللكثير منهم بل الأغلب من سوء الفهم في الدين ما لا حاجة الى عده ، ولا يخفى أن ما يحصله هذا الفريق في العلم لا يظهر له أدنى أثر في صلاح الأمة كما هو مشهود .

والفريق الثاني من يهيئه أولياؤه لنيل منصب من مناصب الحكومة عال أو سافل ، وأفراد هذا الفريق ، ان كثروا أو قلوا ، يحصلون مبادىء العلوم المعروفة بالعلوم العصرية ، ثم يحصل كل واحد ما به ينال المنصب الذي يعده له والده ، على أن ما يحصل أما لفظ يحفظ أو خيال يخزن ، والمدار على الوصول الى ورقة الشهادة ، ومن هؤلاء من يذهبون الى أوربا لاستكمال التربية فيها ولا غاية لهم سوى هذه الغاية ، فمن أصاب منهم بعد ذلك وظيفه قنع بها ، وحصر همه على العمل فيها ، ومن لم يجد وقف على الابواب

ينتظرها ، فاذا مل الانتظار أو تقضى زمن العمل وجدته فى مقهى أو ملهى يسرف فى أوقاته ويفسد فى أدواته ، والصالحون منهم ، وقليل ماهم ، لايهمهم شان العامة شقيت أو سعدت ، هلكت أو قامت ، فأى أثر لما تعلمه هؤلاء يظهر فى الأمة ، واستثنى منهم شواذ فى كل بلد على ضعفهم يرجى أن ينمو عددهم وتجنى الأمم ثمار أعمالهم ٠

وهذا شان الرجال مع العلم ٠

أما النساء فقد ضرب بينهن وبين العلم ما يجب عليهن فى دينهن أو دنياهن بستار لايدرى متى يرفع ، ولا يخطر بالبال أن يعلمن عقيدة أو يؤدين فريضة سوى الصوم ، وما يحافظن عليه من الفقه فانما هو بحكم العادة ، وحارس الحياء ، وقليل جدا من موروث الاعتقاد بالحلال والحرام ، وحشو أذهانهن بالخرافات ، وملاك أحاديثهن الترهات ، اللهم الا قليلا منهن لا يستغرق الدقيقة عدهن ، وكل من الرجال والنساء يعد نفسه مسلما يعده الجنة ويمنيه السعادة ٠

أخطأ المسلم فى فهم معنى التوكل والقدر فمال الى الكسل ، وقعد عن العمل ٠ ووكل الأمر الى الحوادث تصرفه حيثما تهب ريحها ، ويظن انه بذلك يرضى ربه ويوافى رغائب دينه ٠

أخطأ المسلم فى فهم ما ورد فى دينه من أن المسلمين خير الأمم ، وأن العزة والقوة مقرونتان بدينهم أبد الدهر ، فظن ان الخير ملازم لعنوان المسلم ، وان رفعة الشأن تابعة للفظه وان لم يتحقق شىء من معناه ، فان أصابته مصيبة أو حلت به رزية تسلى بالقضاء ، وانتظر ما يأتى به الغيب ، بدون أن يتخذ وسيلة لدفع الطارىء ، أو ينهض الى عمل لتلافى ما عرض من خلل ، أو مدافعة الحادث الجلل ، مخالفا فى ذلك كتاب الله وسنة نبيه ٠

تداركهم الله بلطفه ، وقد ابتلاهم بمن يلصق بدينهم كل عيب ، ويقرنه اذا ذكره بما يتبرأ منه ، ويعده حجابا بين الأمم والمدنية ، بل يعده منبع شقائهم وسبب فنائهم ·

تنبه لذلك أفراد من عقلاء المسلمين فى أواسط القرن الماضي من سنى الهجرة في أقطار مختلفة من بلاد فارس والهند وبلاد العرب ثم في مصر ، وكل منهم بحث فى الداء ، وقدر له الدواء بحسب فهمه على تقارب بينهم ، ولعلهم يلتقون يوما عند الغاية ان شاء الله ·

مقصد الجميع ينحصر في استعمال ثقة المسلم بدينه فى تقويم شئونه ، ويمكن أن يقال ان الغرض الذى يرمى اليه جميعهم انما هو تصحيح الاعتقاد ، وازالة ما طرأ عليه من الخطأ فى فهم نصوص الدين ، حتى اذا سلمت العقائد من البدع ، تبعتها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب ، واستقامت أحوال الأفراد ، واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينية ودنيوية ، وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة ، وسرى الصلاح منهم الى الأمة ، فاذا سمعت داعيا يدعو الى العلم بالدين فهذا مقصده ، أو مناديا يحث على التربية الدينية فهذا غرضه ، أو صائحا ينكر ما عليه المسلمون من المفاسد فتلك غايته ، وهذه سبيل لمريد الاصلاح فى المسلمين لا مندوحة عنها ، فان أتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين ، يحوجه الى انشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا واذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال ، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة به ما بيناه وهو حاضر لديهم ، والعناء فى ارجاعهم اليه أخف من احداث مالا المام لهم به ، فلم العدول عنه الى غيره ؟

لم يخطر ببال أحد ممن يدعو الى الرجعة الى الدين ، سواء في مصر أو غيرها ، أن يثير فتنة على الاوربيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين ، غير أن بعض المسيحيين اذا سمع قولا في الدين أعرض عن فهمه ، وأنشأ لنفسه غولا من خياله ، يخاف منه ويخشى غائلته يسميه باسم الدين ، وبعضهم يظن انه لو انتبه المسلمون الى شئونهم ، ورجعوا الى الأخذ بالصحيح من دينهم لاعتصموا بجامعتهم ، واستماتوا على تقويم أمورهم بأنفسهم ، واستغنوا عمن أدخلوه في اعمالهم من غيرهم ، فيحرم الكثير من المسيحيين تلك المنافع التي نالوها بغفلتهم ، وهو سوء ظن من الزاعم بنفسه ، فانه يظنه هذا يعتقد انه غاش مغرر ، وسالم متلصص ، وسوء ظن بالمسلمين أيضا ، فان أهل الوطن الواحد لا يستغني بعضهم عن بعض ، مهما ارتقت معارفهم وعظم اقتدارهم على الأعمال ، وغاية الأمر أن ما كان ينال اليوم بدون حق ، يصبح وهو لاينال الا بحق ، والأجنبي الذي كان ينفق الواحد ويربح المائة ، يرجع الى الاعتدال في الكسب ، ويحتاج الى شيء من التعب في استيراد الربح ، وقد كان المسيحيون عاملين في الدول الاسلامية وهي في عنفوان قوتها ، والأجانب يطلبون الكسب في أرجائها وهي في أرفع مقام من عزتها •

نعم يعرض في طريق الدعوة الى الدين على هذا الوجه أن يلتمس مسلم بمصر معونة من مسلم آخر بسورية أو بالهند أو بالعجم أو بأفغانستان أو بغير هذه الأقطار ، لأن مرض الجميع واحد ، وهو البدعة في الدين ، فاذا نجع الدواء في موضع ، كان السليم أسوة للمريض في موضع آخر ، أما السعي في توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم ، فلم يمر بعقل أحد منهم ، ولو دعا اليه داع لكان أجدر به أن يرسل الى مستشفى المجانين •

وتحصيل المعارف ولحقوا بهم في التمدن ، وعند ذلك يسهل الاتفاق معهم ان شاء الله ·

سوء ظن المسلمين بسياسة أوربا كلها ، وعدم ثقة سياسييهم بدولة من الدول ، واعتقاد المسلمين بأن مصلحة أوربا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية ، وعدم اطمئنانهم الى سياسة الدول المسيحية ، حتى أدى بهم فقدان الثقة بالمسيحيين الى حد الا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم — سمع بذلك كله مسيو هانوتو من صاحب الأهرام ، ومن بعض العثمانيين في الاستانة وباريس ، ثم أخذ يبرهن على أن سياسة أوربا اقتصادية ملكية ، لا دينية لاهوتية ·

لا أدرى من هم المسلمون الذين وصفهم مسيو هانوتو ، ومن أبلغه أخبارهم : أهم الهنود وهم في حكم دولة اجنبية ، ولا نزال نرى في خطبهم وجرائدهم ما يدل على طاعتهم لحكامهم ، وتعليقهم الآمال بعدلهم ، والتماسهم الحق من طرقه ؟

هل هم مسلمو الروسيا ، وثقتهم بحكومتهم أو ثقة حكومتهم بهم لا تخفى على أحد ، حتى أن الدولة الروسية تفضلهم على المسيحيين من غير المذهب الارثوذكسي ؟

هل هم الافغانيون واخلاص أميرهم في مصافاة الانكليز أشهر من أن يذكر ، ولا ينفي اخلاصه حرصه على بلاده ، ومحافظته على مصلحتها ؟

هل هم الفرس واستنامتهم الى السياسة الروسية لا يجهلها أحد ؟

هل هم التونسيون ، وقد أثنى عليهم مسيو هانوتو بما هم

أهله ، وثبت له ارتياحهم الى السلطة الفرنسية لمجرد أنها أطلقت لهم الحرية فى دينهم ؟

لعله لم يقصد الا العثمانيين كما يدل عليه بقية كلامه وكما يفيده قوله انهم لا يأتمنون مسيحيا عثمانيا ، والعثمانيون منهم المصريون ومنهم غيرهم ، فاما المصريون فلا شيء عندهم يدل على عدم الثقة بالاوربيين وبالمسيحيين العثمانيين ، فانهم يشاركون فى العمل مواطنيهم من الأقباط فى جميع مصالح الحكومة ، ماعدا المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين ، وهم معهم على غاية الوفاق خصوصا أهل الاخلاص وسلامة النية منهم ، ولكل من الفريقين أصدقاء وأحبة من الفريق الآخر ، ثم شأنهم هو ذلك الشأن مع سائر الطوائف المسيحية ، الا من ظهر منهم بالتعصب البارد للدين وآذاهم فى دينهم أو فى منافعهم الخاصة بهم لا لشيء سوى التعصب الأعمى ، ولا نطلب على ذلك شاهدا أقرب من صاحب الجريدة الذى يحادثه مسيو هانوتو ، فانه بعد أن كان على المسلمين أثناء الحرب الروسية العثمانية ، وبعد أن أتى ما أتى عقب الحوادث العرابية ، شهد له المسلمون بأنه صديقهم والساعى فى خيرهم ، كما افتخر بذلك مرارا فى جريدته ، وان كانت له هنات معروفة فأين فقد هذه الثقة بالعثمانيين المسيحيين فى مصر ؟ هل طرد أحد من خدمة الحكومة لانه مسيحى عثمانى ؟ هل حرم أحد حق المحاماة أو انشاء الجرائد أو المطابع أو اقامة المصانع أو تأسيس البيوت التجارية لانه مسيحى عثمانى ؟ فليأت صاحبنا بشاهد واحد !

أما حالهم مع الاوربيين فانا نراهم اذا أحسوا بعدل من انكليزى ذكروه ، او وصل اليهم معروف من أى عامل أوربى شكروه ، بل ازيدك على هذا ان المستغيث منهم بالحكومة يطلب منها أن يتولى تحقيق مظلمته انكليزى ، كما شوهد ذلك كثيرا فى شكاياتهم ،

أخرياتها دولة سياسة ومدافعة ، ولا دخل للدين في شيء من معاملاتها مع الأمم الاوروبية ٠

امبراطور المانيا جاء الى سورية للاحتفال بفتح كنيسة فبالغ السلطان في الاحتفال به الى الحد الذى اشتهر وبهر ٠ يجيء الأمراء المسيحيون من الاوروبيين الى الاسـتانة فيلاقون من الاحتفال مالا يلاقونه في بلاد مسيحية ، وينفق في تعظيم شأنهم من المال ما المسلمون في حاجة اليه ٠ أليس ذلك لمجاملتهم واكتساب مودتهم ؟ وهل بعد المودة الا الثقة بصاحب المودة ؟ كان يمكن للسلطان أن يكتفي بالرسميات ولا يزيد عليها ، ولكن عهد في معاملته ما يفوق الرسمي بدرجات ، فان سلمنا أن سياسة اوربا ليست دينية من جميع وجوهها فسـياسة الدولة العثمانية مع أوربا هي كذلك ومسلموها تبع لها ٠

فان قال قائل : ان حوادث الأرمن لم تزل في ذاكرة أهل الوقت ، وينسبون وقائعها الى التعصب الديني ، بل يقولون ان أسبابها مظالم جر اليها ذلك التعصب ، أمكن أن يجاب بأن العداوة مع طائفة مخصوصة لا تدل على فقد الثقة بكل مسيحي منها ومن غيرها ، ومع ذلك فان كثيرا من الارمن في خدمة الدولة الى اليوم ، وهم بذلك موضع ثقتها ، وهذا وذاك يدل على الريب فيما يزعمون من أن منشأ تلك الوقائع التعصب الديني فان المسيحيين وسواهم في الممالك العثمانية أنعم حالا من المسلمين كما شاهدناه بأنفسنا ، ولو أنصف الاوربيون لأمكنهم فهم أسباب هذا الاضطراب الذى يظهر زمنا بعد زمن في تلك الأقطار ، ولسهل عليهم أن يعرفوا أن منبعه في أوربا لا في آسيا ٠

لا أغالي حين أقول أن المسيحيين في الممالك العثمانية متمتعون بنوع من الحرية في التعليم والتربية وسائر وجوه الخير ما يتمنى

المسلمون أن يساووهم فيه ، فهل هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين وعدم الثقة بهم ؟ لا يليق بكاتب مثل صاحب الأهرام أن يروى عن المسلمين كافة مثل مارواه ، فان ذلك مما يحزن المسلمين والمسيحيين جميعا ، واني أعتقد أنه عند الكلام على المسلمين لم يكن في ذهنه الا بعض اشخاص لم تعجبه آراؤهم فيه ، فاستحضر في صورهم جميع المسلمين وسياسييهم ٠

ليعلم مسيو هانوتو أن جميع ما يقال له أو يكتبه بعض العثمانيين لا حقيقة له الا في ذهن القائل أو الكاتب ، فلا ينبغي أن يعول على مثله في أحكامه ، وعليه أن يحقق الأمر بنفسه ان كان يهمه أن يتكلم فيه ٠

وأما ان المسلمين أخذوا عليه فيما كتب عن الاسلام مع انه خدمهم ، وقوله « فكيف بحالهم مع من لم يخدمهم » ، فنبين له الوجه فيه ليزول عنه ما سبق الى فهمه ، ولو اقتصر على الكلام في السياسة ، وبحث في علاقة المسلمين مع حكومته ولم يتناول الدين نفسه في أصلين من أهم أصوله ، لما أخذ عليه أحد الا من ينتقد رأيه من جهة ما هو صحيح أو غير صحيح ، ولكنه لم يكتف بذلك وطعن في عقيدة التوحيد ، وبين رداءة أثرها في المسلمين ، واستل سلاحه على عقيدة القدر ، وبين سوء ما جرت اليه فيهم ، وهو بذلك يثبت أن المسلمين لا يزالون منحطين ماداموا مسلمين ، وهو مالا يرضاه أحد منهم ٠

لو مال على المسلمين فيما هم عليه اليوم وفي انحرافهم عن أصول دينهم ، واكتفى بتعنيفهم على اهمالهم لشئونهم ، وغفلتهم عن مصلحتهم ، كما جاء في حديثه الذى نحن بصدده ، لما وجد من المسلمين الا معتبرا بقوله متعظا بنصيحته والسلام ٠

الاسلام وأصوله

للاسلام فى الحقيقة دعوتان : دعوة الى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ، ودعوة الى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ·

فاما الدعوة الأولى فلم يعول فيها الا على تنبيه العقل البشرى وتوجيهه الى النظر فى الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع الى ما حواه الكون من النظام والترتيب ، وتعاقد الأسباب والمسببات ليصل بذلك الى أن للكون صانعا واجب الوجود عالما حكيما قادرا ، وأن ذلك الصانع واحد لوحدة النظام فى الأكوان · وأطلق للعقل البشرى أن يجرى فى سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد فنبهه الى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتصريف الرياح على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها فى تسخير الفلك لمنافعه ، وارسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السحاب ماء فتحيا به الأرض بعد موتها وتنبت ما شاء الله من النبات والشجر ، مما فيه رزق الحى وحفاظ حياته ــ كل ذلك من آيات الله عليه أن يتدبر فيها ليصل الى معرفته ·

ثم قد يزيده تنبيها بذكر أصل للكون يمكن الوصول الى شيء منه بالبحث فى عوالمه ، فيذكر ما كان عليه الأمر فى أول خلق السموات والأرض كما جاء فى آية : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حى أفلا يؤمنون) ونحوها من الآيات · وهو أطلاق لعنان العقل ليجرى شوطه الذى قدر له فى طريق الوصول

الى ما كانت عليه الأكوان ، وقد يزيد التنبيه تاثيرا فى ايقاظ العقل ما يؤيد ذلك من السنة ، كما جاء فى خبر من سأل النبى صلى الله عليه وسلم وآله : اين كان ربنا قبل السموات والأرض ؟ فأجابه عليه السلام : « كان فى عماء تحته هواء » (١) والعماء عندهم السحاب ، فنرى القرآن فى مثل هذه المسألة الكبرى لا يقيد العقل بكتاب ، ولا يقف به عند باب ، ولا يطالبه فيه بحساب ، فليقرأ القارىء القرآن يغتني عن سرد الآيات الداعية الى النظر فى آيات الكون : (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء) ؟ • (وآية لهم الأرض الميتة احييناها واخرجنا منها حبا فمنه يأكلون) • (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم والوانكم) وأمثال ذلك • فلو أردت سرد جميعها لأتيت بأكثر من ثلث القرآن بل من نصفه فى مقالى هذا •

يذكر القرآن اجمالا من آثار الله فى الأكوان تحريكا للعبرة ، وتذكيرا بالنعمة ، وحفزا للفكرة ، لا تقريرا لقواعد الطبيعة ، ولا الزاما باعتقاد خاص فى الخليقة ، وهو فى الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذا السبيل ، انظر كيف يقرع بالدليل (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا • (ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من اله ، اذا لذهب كل اله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون) •

فالاسلام فى هذه الدعوة والمطالبة بالايمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلى ، والفكر الانسانى الذى

---

(١) رواه ابن جرير الطبرى والطبرانى وأبو الشيخ فى العظمة عن أبى رزين العقيلى (رض) والحديث من المتشابهات ولكنه يوافق ما يقوله علماء الكون فى التكوين (ثم استوى الى السماء وهى دخان) •

يجرى على نظامه الفطرى (وهو ما نسميه بالنظام الطبيعى) فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة الهية ، وقد اتفق المسلمون ـ الا قليلا ممن لا يعتد برأيه فيهم ـ على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات وانه لا يمكن الايمان بالرسل الا بعد الايمان بالله ، فلا يصح ان يؤخذ الايمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة فانه لا يعقل أن تؤمن بكتاب انزله الله الا اذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبأنه يجوز أن ينزل كتابا ويرسل رسولا ٠

وقالوا كذلك : ان أول واجب يلزم المكلف أن يأتى به هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله لينتقل منه الى تحصيل الايمان بالرسل وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة ٠

ـ وأما الدعوة الثانية فهى التى يحتج فيها الاسلام بخارق العادة وما ادراك ما هو خارق العادة الذى يعتمد عليه الاسلام ، فى دعوته الى التصديق برسالة النبى عليه السلام ؟ هذا الخارق للعادة هو الذى تواتر خبره ، ولم ينقطع أثره ، هذا هو الدليل وحده وما عداه مما ورد فى الأخبار سواء صح سنده أو اشتهر أو ضعف أو وهى ، فليس مما يوجب القطع عند المسلمين ، فاذا أورد فى مقام الاستدلال فهو على سبيل تقوية العقد لمن حصل أصله ، وفضل من التأكيد لمن سلمه من أصله ٠

ذلك الخارق المتواتر المعول عليه فى الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده ٠ والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر ـ هو أنه جاء على لسان أمى لم يتعلم الكتاب ولم يمارس

العلوم ، وقد نزل على وتيرة واحدة ، هاديا للضال مقوما للمعوج ، كافلا بنظام عام لحياة من يهتدي به من الأمم منقذا لهم من خسران كانوا فيه ، وهلاك كانوا أشرفوا عليه وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على ما لم يرتق اليه كلام سواه ، حتى لقد دعى الفصحاء والبلغاء أن يعارضوه بشيء من مثله فعجزوا ولجئوا الى المجالدة بالسيوف وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به الى أن ألجئوهم الى الدفاع عن حقهم وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الاسلام تمد عالمها باضوائها ، وتنشر أنوارها في أجوائها ٠

وهذا الخارق قد دعى الناس الى النظر فيه بعقولهم ، وطولبوا بأن يأتوا في نظرهم على آخر ما تنتهي اليه قوتهم فان وجدوا طريقا لابطال اعجازه أو كونه لا يصلح دليلا على المدعى فعليهم أن يأتوا به قال تعالى : (وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) ٠ وقال : (افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وقال غير ذلك مما هو مطالبة بمقاومة الحجة ، ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رغم من العقل ٠

معجزة القرآن جامعة من القول والعلم ، وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم ، فهي معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضي فيها ، وأطلقت له حق النظر في أحنائها ، ونشر ما انطوى في أثنائها ، وله منها حظه الذي لا ينتقص ٠ فهي معجزة أعجزت كل طوق أن يأتي بمثلها ، ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها ، أما معجزة موت حي بلا سبب معروف للموت، أو حياة ميت ، أو اخراج شيطان من جسم ، أو شفاء علة من بدن ، فهي مما ينقطع عنده العقل ويجمد لديه الفهم ،

وانمـا يأتى بهـا الله على يد رسله لاسكات أقوام غلبهم الوهم ، ولم يضىء عقـولهم نور العـلم ، وهكذا يقيـم الله بقدرته من الآيات للامم على حسب الاسـتعدادات ٠

ثم ان الاسلام لم يتخذ من خوارق العـادات دليلا عـلى أن الحق لغير الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسلام ، ولم ترد فيـه كلمـة واحدة تشير الى أن الداعين اليـه يمكنهم أن يغيروا شيئا من سنة الله فى الخليقة ، ولا حاجة الى بيـان ذلك فهـو اشهر من أن يحتاج الى تعـــريف ٠

الاصل الأول للاســلام

النظر العقلى لتحصيل الايمان : فاول أساس وضـع عليـه الاسلام هو النظر العقلى ٠ والنظر عنده هو وسيلة الايمان الصحيح فقد أقامك منـه على سـبيل الحجة وقاضـاك الى العقـل ، ومن قاضاك الى حاكم فقـد أذعن الى سلطته ، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثـور عليـه ؟

بلغ هذا الاصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السـنة : أن الذى يستقصى جهده فى الوصول الى الحـق ثم لم يصل اليه ومات طالبا غير واقف عنـد الظن فهـو ناج ٠ فاية سـعة لا ينظـر اليها الحـــرج أكمل من هذه السـعة ؟

الأصـل الثـانى

تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض : أسرع اليك بذكر أصل يتبع هذا الأصل المتقدم قبل أن انتقل الى غيره : اتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لا ينظر اليه على انه اذا تعارض العقل والنقل اخذ بمادل عليه العقـل ، وبقى فى النقل طريقـان :

طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر الى الله فى علمه ، وطريق تاويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل ·

وبهذا الأصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى صلى الله عليه وسلم مهدت بين يدى العقل كل سبيل ، وأزيلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال الى غير حد ، فماذا عساه أن يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب الى ماهو أبعد من هذا ؟ وأى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم أن لم يسعهم هذا الفضاء ؟ ان لم يكن فى هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ولا سماء باجرامها وأبعادها ·

الأصل الثالث

البعد عن التكفير : هلا ذهبت من هذين الأصلين الى ما أشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم وهو اذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الايمان من وجه واحد حمل على الايمان ، ولا يجوز حمله على الكفر ، فهل رأيت تسامحا مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولا لا يحتمل الايمان من وجه واحد من مائة وجه ؟ اذا بلغ به الحمق هذا المبلغ كان الاجدر به أن يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية ويؤخذ بيديه ورجليه فيلقى فى النار ·

الأصل الرابع

الاعتبار بسنن الله فى الخلق : يتبع ذلك الأصل الأول فى الاعتبار ــ وهو الا يعول بعد الانبياء فى الدعوة الى الحق على غير الدليل ، والا ينظر الى العجائب والغرائب وخوارق العادات ــ أصل

آخر وضع لتقويم ملكات الأنفس القائمة على طريق الاسلام واصلاح اعمالها فى معاشها ومعادها ـ ذلك هو أصل العبرة بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر وفى آثار سيرهم فيهم • فمما جاء فى الكتاب العزيز مقررا لهذا الأصل : (لقد خلت من قبلكم ســـنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ـ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولن تجد لسنتنا تحويلا ـ فهل ينظرون الا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) ـ (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) الخ •

فى هذا يصرح الكتاب ان لله فى الأمم والأكوان سننا لا تتبدل والسنن الطرائق الثابتة التى تجرى عليها الشئون وعلى حسبها تكون الآثار ، وهى التى تسمى شرائع أو نواميس ، ويعبر عنها قوم بالقوانين • مالنا ولاختلاف العبارات ؟ الذى ينادى به الكتاب ان نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هـــو نظام واحـــد لا يتغير ولا يتبدل ، وعلى من يطلب السعادة فى هذا الاجتماع أن ينظر فى أصول هـــذا النظام حتى يرد اليها اعماله ويبنى عليها ســـيرته وما يأخذ به نفسه • فان غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن الا الشقاء ، وان ارتفع الى الصالحين نسبه ، أو اتصل بالمقربين سببه • فمهما بحث الناظر وفكر ، وكشف وقرر ، وأتى لنا بأحكام تلك السنن ، فهو يجرى مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ، ولا تنفر منه ، فلم لا يعظم تسامحها معه ؟

جاء الاسلام لمحو الوثنية عربية كانت أو يونانية أو رومانية ، أو غيرها ، فى أى لباس وجدت ، وفى أية صورة ظهرت ، وتحت أى اسم عرفت ، ولكن كتابه عربى والعربية لغة أولئك الوثنيين أعدائه الاقربين • وفهم معناه موقوف على معرفة أوضاع اللسان ولاتعرف أوضاعه حتى تعرف مواضع استعمال كلمة وأساليبه ،

ولن يكون ذلك الا بحفظ ما نطق به العرب من منظوم ومنثور ، وفيه من آدابهم وعاداتهم واعتقاداتهم ما يعيد عند الناظر فى كلامهم صورة كاملة من جاهليتهم ، وما فيها من الوثنية وأطوارها • هكذا صنع المسلمون الأولون ــ ركبوا الأسفار ، وانفقوا الأعمار ، وبذلوا الدرهم والدينار ، فى جمع كلام العرب وحفظه وتدوينه وتفسيره ، توسلا بذلك الى فهم كتابهم المنزل فكانوا يعدون ذلك ضربا من ضروب العبادة ، يرجون من الله فيه حسن المثوبة ، فكان من طبيعة الدين الا يحتقر العلم الذى ولد هو فيه • بل قد يكون من الدين علم ملليس منه (١) متى حسنت النية فى تناوله وهذا باب من التسامح لايقدر سعته الا اهل العلم به وأما المسيحيون الأولون فقد هجروا لســان المسيح عليه السلام سريانيا كان أو عبرانيا (أو آراميا) وكتبــوا الاناجيل باللغة اليونانية ولم يكتب بالعبرية الا انجيل متى ، فيما يقال • الا ترى أن اسم الانجيل نفسه يونانى ؟ كل ذلك كراهة لليهود الذين كان ينطق المسيح بلسانهم ويعظهم بلغتهم وتحرجا من النظر فى دواوين آدابهم ، وما توارثوا من عاداتهم •

الاصـل الخامس

قلب السلطة الدينية : أصل من أصول الاســلام انتقل اليه ــ وما أجله من أصل ــ قلب الســـــلطة الدينية والاتيان عليها من أساسها •

هدم الاسلام بناء تلك السلطة ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم • لم يدع الاسلام لاحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة احـد ولا سيطرة على ايمانه على أن

---

(١) أى قد يعد الاسلام من الدين الذى يتقرب به الى الله ــ الاشتغال بعلم غير دينى بنية صالحة كنفع الناس به •

الرسول عليه السلام كان مبلغا ومذكرا لا مهيمنا ولا مسيطرا ، قال الله تعالى : « فذكر انما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر » ولم يجعل لاحد من أهله أن يحل ولا أن يربط لا في الأرض ولا في السماء . بل الايمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده ، ويرفع عنه كل رق الا العبودية لله وحده ، وليس لمسلم ـ مهما علا كعبه في الاسلام ـ على آخر ـ مهما انحطت منزلته فيه ـ الا حق النصيحة والارشاد . قال تعالى في وصف المفلحين : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » وقال : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . وقال : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » . فالمسلمون يتناصحون ثم هم يقيمون أمة تدعو الى الخير ـ وهم المراقبون عليها ـ يردونها الى السبيل السوي اذا انحرفت عنه . وتلك الأمة ليس لها عليهم الا الدعوة والتذكير والانذار والتحذير ، ولا يجوز لها ولا لاحد من الناس أن يتتبع عورة أحد . ولايسوغ لقوي ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به عن أحد الا عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله وعن رسوله من كلام رسوله ، بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف وانما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم ، كقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبها وأحوال العرب خاصة في زمان البعثة وما كان الناس عليه زمن النبي صلى الله عليه وسلم . وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحي ، وشيء من الناسخ والمنسوخ من الآثار . فان لم تسمح له حالته بالوصول الى ما يعده لفهم الصواب من السنة والكتاب فليس عليه الا أن يسأل العارفين بهما وله بل عليه أن يطالب

المجيب بالدليل على ما يجيب به سواء كان السؤال فى أمر الاعتقاد أو فى حكم عمل من الأعمال ·

فليس فى الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه ·

السلطان في الاسلام

لكن الاسلام دين وشرع ، فقد وضع حدودا ، ورسم حقوقا ، وليس كل معتقد في ظاهر أمره بحكم يجرى عليه فى عمله · فقد يغلب الهوى · وتتحكم الشهوة · فيغمط الحق · ويتعدى المعتدى الحد · فلا تكمل الحكمة من تشريع الاحكام الا اذا وجدت قوة لاقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضي بالحق · وصون نظام الجماعة · وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى فى عدد كثير فلابد أن تكون فى واحد وهو السلطان أو الخليفة ·

الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم · ولا هو مهبط الوحى ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة · نعم شرط فيه أن يكون مجتهدا أى أن يكون من العلم باللغة العربية وما معها ـ مما تقدم ذكره ـ بحيث يتيسر له أن يفهم من الكتاب والسنة ما يحتاج اليه من الاحكام ، حتى يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد ، ويسهل عليه اقامة العدل الذى يطالبه به الدين والأمة معا ·

هو ـ على هذا ـ لا يخصه الدين فى فهم الكتاب والعلم بالاحكام بمزية ، ولا يرتفع به الى منزلة ، بل هو وسائر طلاب الفهم

سواء ، انما يتفاضلون بصفاء العقل ، وكثرة الاصابة في الحكم (١) ثم هو مطاع مادام على المحجة ونهج الكتاب والسنة والمسلمون له بالمرصاد ، فاذا انحرف عن النهج اقاموه عليه واذا اعوج قوموه بالنصيحة والاعذار اليه(١) «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق»(٢) فاذا فارق الكتاب والسنة فى عمله وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره ما لم يكن فى استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه (٣) ·

فالأمة أو نائب الأمة هو الذى ينصبه والأمة هى صاحبة الحق فى السيطرة عليه وهى التى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه ·

ولا يجوز لصحيح النظر ان يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الافرنج (ثيوقراطى) أى سلطان آلهى فان ذلك عندهم هو الذى ينفرد بتلقى الشريعة عن الله وله حق الاثرة بالتشريع وله فى رقاب الناس حق الطاعة ، لا بالبيعة ، وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة بل بمقتضى الايمان فليس للمؤمن مادام مؤمنا أن يخالفه ، وان اعتقد أنه عدو لدين الله ، وشهدت عيناه من أعماله مالا ينطبق على ما يعرفه من شرائعه ، لان عمل صاحب السلطان الدينى وقوله فى اى مظهر هما دين وشرع ، وهكذا كانت سلطة الكنيسة فى

---

(١) من شواهد ذلك ارتفاع قدر العلماء على الخلفاء الذين قصروا عنهم فى الفهم والعلم ، ألم يأتك نبأ الأمام مالك مع الخليفة هرون الرشيد رحمهما الله ؟ وكيف أنزل الامام الخليفة عن المنصة وأقعده مع العامة عند القاء الدرس ، لأنه فى رتبة المستفيد ·

(١) من شواهد ذلك قول الخليفة أبى بكر رضى الله عنه فى خطبته « وان زغت فقومونى » ·

(٢) حديث رواه البخارى ومسلم وغيرهما ·

(٣) مثال ذلك ان يكون له عصبية اقوى من الأمة يخشى أن يبيدها بها · ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح ·

الوسطى ٠ ولا تزال الكنيسة تدعى الحق فى هذه السلطة كما سبقت الاشارة اليه ٠

كان من اعمال التمدن الحديث الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية فترك للكنيسة حق السيطرة على الاعتقاد والأعمال فيما هو من معاملة العبد لربه : تشرع وتنسخ ما تشاء ، وتراقب وتحاسب كما تشاء ، وتحرم وتعطى كما تريد ، وخول السلطة المدنية حق التشريع فى معاملات الناس بعضهم لبعض ، وحق السيطرة على ما يحفظ نظام اجتماعهم ، فى معاشهم لا فى معادهم ، وعدوا هذا الفصل منبعا للخير الأعم عندهم ٠

ثم هم يهمون فيما يرمون به الاسلام من أنه يحتم قرن السلطتين فى شخص واحد ٠ ويظنون أن معنى ذلك فى رأى المسلم أن السلطان هو مقرر الدين ، وهو واضع أحكامه وهو منفذها ، والايمان آلة فى يده يتصرف بها فى القلوب بالاخضاع وفى العقول بالاقناع ، وما العقل والوجدان عنده الا متاع ، ويبنون على ذلك أن المسلم مستعبد لسلطانه بدينه وقد عهدوا أن سلطان الدين عندهم كان يحارب العلم ، ويحمى حقيقة الجهل ، فلا يتيسر للدين الاسلامى أن يأخذ بالتسامح مع العلم مادام من أصوله أن اقامة السلطان واجبة بمقتضى الدين وقد تبين لك أن هذا كله خطأ محض وبعد عن فهم معنى ذلك الأصل من أصول الاسلام ٠ وعلمت أن ليس فى الاسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة الى الخير والتنفير عن الشر ، وهى سلطة خولها الله لادنى المسلمين يقرع بها أنف اعلاهم ، كما خولها لاعلاهم يتناول بها من أدناهم ، ومن هنا تعلم « الجامعة » أن مسألة السلطان فى دين الاسلام ليست مما يضيق به صدره ، وتحرج به نفسه عن احتمال العلم ٠ وقد تقدم ما يشير الى ما صنع الخلفاء العباسيون والامويون الاندلسيون

من صنائع المعروف مع العلم والعلماء · وربما اتينا على شيء آخر منه فيما بعد ·

يقولون : ان لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني افلا يكون للقاضي أو للمفتي أو شيخ الاسلام ؟ واقول : ان الاسلام لم يجعل لهؤلاء ادنى سلطة على العقائد وتقرير الاحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قررها الشرع الاسلامي ، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على ايمان أحد أو عبادته لربه ، او ينازعه في طريق نظره ·

الأصل السادس

حماية الدعوة لمنع الفتنة : قالوا ان الدين الاسلامي دين جهادى شرع فيه القتال ولم يكن شرع في الدين المسيحى ، ففى طبيعة الدين روح الشدة على من يخالفه ، وليس فيها ذلك الصبر والاحتمال اللذان تقضى بهما شريعة المسالمة ، وهى الشريعة التى وردت في كثير من الوصايا المسيحية « من ضربك على خدك الايمن فأدر له خدك الآخر ، من سخرك ميلا فسر معه ميلين » (متى ٥ : ٣٩ ، ٤٠) ونحو ذلك ، حتى لقد طلبت فيها محبة العدو وهى مما لا يدخل تحت الاختيار بل ولا محبة الصديق ، وانما الاختيارى العدل بين الاعداء والأولياء · لكن في ملكوت الله كل شيء مستطاع ولا شيء فيه بمستحيل ·

قلنا : لكن انظروا هل دفع الشر بالشر عند القدرة عليه وعند عدم التمكن من سواه خاص بالدين الاسلامي او هو في طبيعة كل قادر يعذر الى خصمه ؟ ليس القتل في طبيعة الاسلام بل في طبيعته العفو والمسامحة : « خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين » ولكن القتال فيه لرد اعتداء المعتدين على الحق واهله الى ان يأمن

شرهم ، ويضمن السلامة من غوائلهم ، ولم يكن ذلك للاكراه على الدين ولا للانتقام من مخالفيه ، ولهذا لا تسمع في تاريخ الفتوح الاسلامية ماتسمعه في الحروب المسيحية ، عندما اقتدر أصحاب « شريعة المسالمة » على محاربة غيرهم من قتل الشيوخ والنســـاء والأطفال (١) ·

لم تقع حرب اسلامية بقصد الابادة كما وقع كثير من الحروب بهذا القصد بأيدى المسيحيين · وانما كان الصبر والمسالمة دينا عندما كانت القدرة والقوة تعوزان الدين · وغاية مايقال ان العناية الالهية منحت الاسلام فى الزمن القصير من القوة على مدافعة أعدائه ما لم تمنحه لغيره فى الزمن الطويل · فتيسر له فى شبيبته مالم يتيسر لغيره الا فى كهولته أو شيخوخته ·

---

(١) لعل ما يحدث اليوم فى فى الجزائر من الفرنسيين وفى كينيا من الانجليز خير شاهد على ذلك ·

فى الحرب والسلم

الاسلام الحربى كان يكتفى من الفتح بادخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه ثم يترك الناس وما كانوا عليه من الدين ، يؤدون ما يجب عليهم فى اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد ، وانما يكلفهم بجزية يدفعونها لتكون عونا على صيانتهم والمحافظة على أمنهم فى ديارهم ، وهم فى عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار لا يضايقون فى عمل ، ولا يضامون فى معاملة · وكان خلفاء المسلمين يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا عن العامة فى الصوامع والأديار لمجرد العبادة ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال ، وكل من لم يعن على القتال · جاءت السنة المتواترة بالنهى عن ايذاء أهل الذمة وبتقرير مالهم من الحقوق على المسلمين « لهم مالنا وعليهم ما علينا » و « من آذى ذميا فليس منا » (١) · واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الاسلام ولست أبالى اذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الاحكام ، عندما بدأ الضعف فى الاسلام ، – وضيق الصدر من طبع الضعيف – فذلك مما لا يلصق بطبيعته ، ويخلط بطينته ·

المسيحية السلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها تراقب أعمال أهله وتخصهم دون الناس بضروب من

---

(١) ورد بهذا المعنى أحاديث فى الصحاح والسنن وايذاء الذمى والمعاهد محرم بالاجماع وروى الخطيب من حديث ابن مسعود، « من آذى ذميا فانا خصمه ومن كنت خصمه ، خاصمته يوم القيامة » ·

العاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم · حتى اذا تمت لها القدرة على طردهم ، بعد العجز عن اخراجهم من دينهم وتعميدهم ، أجلتهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل فى كل ارض استولت عليها امة مسيحية استيلاء حقيقيا ·

لا يمنع غير المسيحى من تعدى المسيحى الا كثرة العدد ، أو شدة العضد ، كما شهد التاريخ ، وكما يشهد كاتبوه · ذلك كله لانه ما جاء ليلقي سلاما بل سيفا ، ولانه جاء ليفرق بين البنت وأمها والابن وأبيه (١) والاسلام يقول كتابه فى شأن الوالدين المشركين : « وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلاتطعهما

---

(١) هذا نص انجيل متى فى هذا · ومثله قول انجيل لوقا ١٤ ــ ٢٥ و ٢٦ « وقال لهم « يسوع » ان كان أحد يأتي الى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وأخوته واخواته حتى نفسه أيضا فلا يقدر ان يكون لى تلميذا » وفى الباب ١٩ من هذا الانجيل ما نصه « ٢٧ أما أعدائى أولئك الذين لم يريدوا ان أملك عليهم فأتوا بهم الى هنا واذبحوهم قدامى » وأما أسفار التوراة فقد جاء فيها نحو ذلك من القسوة على الأهلين المخالفين وعلى سائر المحاربين · قال فى ١٣ : ٩ من سفر تثنية الاشتراع « واذا غواك سرا أخوك ابن أمك او ابنك أو ابنتك او امرأة حضنك أو صاحبك الذى مثل نفسك قائلا : نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك آلهة الشعوب القريبين منك أو البعيدين عنك من اقصاء الأرض الى اقصائها فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه ولا ترق له ،لا تستره بل قتلا تقتله · الخ » ·

وفى سفر التثنية أيضا « ٢٠ : ١٠ ــ ١٦ » ما نصه « حين تقرب من مدينة لتحاربها أدعها الى الصلح فان اجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كلها غنيمتها فتغتنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك الذى أعطاك الرب الهك ، وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جدا منك التى ليست من هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب الهك نصيبا فلا تستبق منهم نسمة ما » ·

وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى » فهو فى اشتداده على الملحدين لامته لا يقضى بالفرقة بين أب وابن ولا بين أم وبنت ، بل يأمر الأولاد المؤمنين أن يصحبوا الوالدين المشركين بالمعروف فى الدنيا مع محافظتهم على دينهم •

فأنت ترى الاسلام من جهة يكتفى من الأمم والطوائف التى يغلب على أرضها بشيء من المال اقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم ، وبأن يعيشوا فى هدوء لا يعكرون معه صفو الدولة ولا يخلون بنظام السلطة العامة • ثم يرضى لهم بعد ذلك عنان الاختيـــار فى شئونهم الخاصة بهم ، ولا رقيب عليهم فيهـا الا ضمائرهم • ومن جهة أخرى ينهى أفراد المؤمنين عن مقاطعـــة ذوى قرباهم من المشركين ، ويطالبهم بحسن معاملتهم ففى طبيعته أن يكل أمر الناس فى سرائرهم الى ربهم ، وفى طبيعته أن يجير من لا يعتقد عقيدته ، ويحمى من لا يتبع سنته ، وان كان فى عمى من الجهالة ، وخبل من الضلالة •

أفترى أنه يصعب عليه بعد ذلك أن يحتمل العلم والعلماء ، ويضيق به حلمه عن صنع الجميل بالفضل والفضلاء ، ممن ينفق عمره فى تقرير حقيقة ، أو كشف غامض أو تبيين طريقة ؟ كلا ثم كلا ، فمن بحث ونقب ، وسبر ونقر ، أو شق الأرض أو ارتقى الى السماء ، فهو فى أمن من أن يعرض الاسلام له فى شيء من عمله ، الا ان يحدث شغبا ، أو يفسد أدبا ، فعند ذلك تمتد يد الملك لرد كيد الكائد ، واصلاح الفاسد بسماح من الدين •

الاصـــل الســـابع

مودة المخالفين فى العقيدة

المصاهرة : أباح الاسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية ، نصرانية

كانت أو يهودية ، وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها ، والقيام بفروض عبادتها ، والذهاب الى كنيستها أو بيعتها ، وهي منه بمنزلة البعض من الكل ، وألزم له من الظل ، وصاحبته في العز والذل ، والترحال والحل ، بهجة قلبه ، وريحانة نفسه ، وأميرة بيته ، وأم بناته وبنيه ، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه. لم يفرق الدين في حقوق الزوجية، بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية . ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها في العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى « ومن آياته أن جعل لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » فلها حظها من المودة ، ونصيبها من الرحمة ، وهي كما هي . وهو يسكن اليها كما تسكن اليه ، وهو لباس لها كما انها لباس له . أين أنت من صلة المصاهرة التي تحدث بين اقارب الزوج واقارب الزوجة وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عهد في طبيعة البشر ؟ وما اجلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم وذوى القربى لوالدتهم ، أيغيب عنك ما يستحكم من ربط الالفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح ، الذي لم يعهد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه ؟ ولا يخفى على صحيح النظر أن تقرير التسامح على هذا الوجه في نشأة الدين مما يعود القلوب على الشعور بأن الدين معاملة بين العبد وربه ، والعقيدة طور من أطوار القلوب يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب ، فهو الذي يحاسب عليها ، وأما المخلوق فلا تطول يده اليها ، وغاية ما يكون من العارف بالحق أن ينبه الغافل ، ويعلم الجاهل ، وينصح الغاوي ، ويرشد الضال . لا يكفر في ذلك نعمة العشير ، ولا يسلك به مسالك التعسير ، ولا يقطع أمل النصير ، ولا يخالف سنة الوفاء ، ولا يحيد عن شرائع الصدق في الولاء .

ماذا ترى في الزوجة الكتابية لو كانت من أهل النظر العقلي

وذهبت مذهبا يخالف مذهب زوجها ؟ أفينقص ذلك من مودته لها ؟ أو يضعف من شعور الرحمة التى افاضها الله بينه وبينها ؟ فاذا كان المسلم يتعود الاحتمال ، بل يتعود المحبة والنصرة لمن يخالفه فى عقيدته ودينه وملته ، ويألف مخالطته وعشرته وولايته ونصرته ، أتراه لا يحتمل أن يرى بجواره من يعمل نظره فى نظـام الخليقة ليصل منه الى اكتشاف سر أو تقرير أصـل فى علم ، أو قاعـدة لصناعة ؟ ان كان قد يخالف ظاهرا مما يعتقد ، أو يميل الى رأى غير الذى يجد ؟ افلا يسع هذا ما يسع المجاهر بالخلاف ، وهو معه على ما رأيت من الائتلاف ؟

لو ذهبت أعد ما فى طبيعة الاسلام من عناصر واركان كلهـا تؤلف مزاج الكرم ، وتكون حقيقة المسامحة مع العلم لاطلت على القارىء اكثر مما اطلت ٠ ولهذا أرى من الواجب على ان اختم القول بذكر أصل اشرت اليه ولا غنى لما نحن فيه عن ذكره ٠

الأصـل الثامن

الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة

الصـحة : الحيـاة فى الاسـلام مقدمة على الدين ٠ أوامر الحنيفية السمحة ان كانت تختطف العبد الى ربه ، وتملأ قلبه من رهبه ، وتفعم أمله من رغبه ، فهى مع ذلك لا تاخذه عن كسبه ، ولا تحرمه من التمتع به ، ولا توجب عليه تقشف الزهادة ، ولا تجشمه فى ترك اللذات ما فوق العادة ٠

صاحب هذا الدين صلى الله عليه وسلم لم يقل « بع ماتملك واتبعنى » ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من مال « الثلث ،

والثلث كثير ، انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » .

الرخص : فرض الصوم على المؤمنين لكن اذا خشى منه المرض أو زيادته أو زادت المشقة فيه جاز تركه ، بل قد يجب اذا غلب على الظن الضرر فيه .

الوضوء أو الغسل من شروط الصحة للصلاة الا اذا خشى منه الضرر أو عرضت مشقة فى تحصيل الماء .

القيام مما لا تصح الصلاة الا به الا اذا اصابت المصلى مشقة فيه فيسقط ، ويصلى قاعدا .

السعى الى الجمعة واجب الا اذا كان هناك وحل غزير ، أو مطر كثير ، أو ما يوجب تعبا ومشقة فيسقط . وهكذا تجد القاعدة قد عمت « صحة الابدان ، مقدمة على صحة الاديان » فترى الدين قد راعى فى احكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح .

الزينة والطيبات : اباح الاسلام لاهله التجمل بانواع الزينة والتوسع فى التمتع بالمشتهيات ، على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية ، والوقوف عند الحدود الشرعية ، والمحافظة على صفات الرجولة ، جاء فى الكتاب العزيز « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين(★) قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون (★) قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون » (سورة الاعراف) .

ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التى يذكرنا بها فضله ، ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره ، كما قال : « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون (★) ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (★) وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس (★) ان ربكم لرءوف رحيم (★) والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون » ثم قال « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » سورة النحل ٠

الاقتصاد : ووضع قانونا للانفاق وحفظ المال فى قوله : « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا (★) ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » سورة الاسراء ٠

النهى عن الغلو فى الدين : وخشى على المؤمن ان يغلو فى طلب الاخرة فيهلك دنياه وينسى نفسه منها فذكرنا بما قصه علينا ان الاخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله علينا فى الدنيا اذ قال « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الأرض (★) ان الله لا يحب المفسدين » سورة القصص ٠

فترى أن الاسلام لم يبخس الحواس حقها ، كما أنه هيأ الروح لبلوغ كمالها ٠ فهو الذى جمع للانسان أجزاء حقيقية واعتبره حيوانا ناطقا لا جسمانيا صرفا ولا ملكوتيا بحتا ، جعله من أهل الدنيا كما هو من أهل الآخرة ٠ واستبقاه من أهل هذا العالم الجسدانى ، كما دعاه الى ان يطلب مقامه الروحانى ٠ اليس يكون بذلك وبما بينه فى قوله (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا)

قد أطلق القيد عن قواه ، لتصل من رفه الحياة « مع القصد » الى منتهاه ؟ والنفوس مطبوعة على التنافس قد عرز فيها حب التسابق فيما تعتقده خيرا أو تجده لذيذا أو تظنه نافعا ٠

وليس فى الغريزة الانسانية أن يقف بها الطلب عند حد محدود أو ينتهى بها السعى الى غاية لا مطلع للرغبة وراءها ، بل خصها الله بالمكنة من الرقى فى أطوار الكمال من جميع وجوهه الى ما شاء الله أن ترقى بدون حد معروف ٠

فاذا جمع سائق الانفس ومزجيها ومرشدها وهاديها ، بين شاحذين ، شاحذ التمتع بمتاع الحياة الدنيا ، وشاحذ الرغبة فى النعيم الدائم فى الآخرة ، فقد جمع لها كل ما يسمو بها عن الرضاء فى الدنيا بالدون وفى الآخرة بعذاب الهون ، فترى كل نفس تمضى مع استعدادها بشهامة فؤادها مضـــاء الزميـــم لا تخشى العثرة بالوعيد ، ولا تقعد عن مطلبها قعدة الرعديد فتطلب منافعها من هذا الكون الذى وجدت فيه ووجد لها ، فتسير فى مناكب الأرض ولا تكتفى عن الكل بالبعض ، وتبحث فى تربتها ، ولا يقف بهـــا ظاهرها عن باطنها ، ولايحجبها ظهرها عن مد يدها الى ما فى جوفها ، ولا تجد ما يصدها عن النظر فى الهواء ، والبحث فى الماء ، والاهتداء بنجوم السماء بعد معرفة مواقعهـــا وحركاتها فى مداراتها واستقامتها وانحرافها وظهورها وخنوســـها ، وبالجملة فكل مستعد لوجه من وجوه النظر أو الولوج فى باب من أبواب العلم ٠ ينطلق الى حيث يبلغ به استعداده أما للنجاة من ضرورة وأما لاستتمام منفعة أو استكمال لذة ، لا يجد من نواهى الدين ما يصـــده عن مطلب ، ولا ما يكف يده عن تناول رغيبة أين هـــذا من ذلك الذى لا يرى الخلاص الا فى مجافاة هذا العالم ولذائذه ، ويجد ان الغنى والثروة من الحجب التى لا تخرق ، تحول بينه وبين ملكوت السموات ٠

كيف يتسنى للمسلم ان يشكر الله حق شكره ، اذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره لينفذ من ظاهره الى سره ، ويقف على قوانينه وشرائعه ، ويستخدم كل ما يصلح لخدمته فى توفير منافعه ؟ كيف يشكر الله اذا توانى فى ذلك وقد أرشده الله فى كتابه وبسنة نبيه الى أن عالمه انما خلق لاجله ، وقد وضـــعه الله تحت تصرف عقله ؟ انظر الى لطف الاشارة في الآية المتقدمة « قل من حرم زينة الله » الخ حيث قال : (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) فأهل العلم هم الذين يعرفون مقدار نعم الله تعالى فيما يرفه به معيشـــتهم ، ويجمل به هيئتهم ، ويجلى به زينتهم ٠

المسلمون مسوقون بنابل من دينهم الى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد ، ولا يرضيهم من ذلك مادون الغـــاية ، ولا يتوفر شيء من وسائل ذلك الا بالعلم ـ فهم محفوزون أشد الحفز الى طلب العلم وتلمسه فى كل مكان ، وتلقيه من اية شفة وأى لسان فاذا لاقاهم العالم فى أى سبيل ، أو عثروا به فى أى جيل ، أو ظهر لهم من أى قبيل ، هشوا له وبشوا ، ونصبوا اليه وكمشوا وشدوا به أواصرهم ، وعقدوا عليه خناصرهم ، ولا يبالون ماتكون عقيدته ، اذا نفعتهم حكمته « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحـــق بها » ألم يأتهم عن ربهم : (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب) ألم يسمعوا فى وصفهم قوله : (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) ٠

ذلك شأن المسلم مع العلم اذا كان مسلما حقا ، وذلك ما تنجر اليه طبيعة دينه ، وحديث « اطلبوا العلم ولو بالصين » (١) ان كان

---

(١) رواه ابن عدى فى الكامل ٠ والبيهقى فى شعب الايمان والمدخل ٠ وابن عبد البر فى العلم ٠ والخطيب فى الرحلة ٠ والديلمى فى مسند الفردوس ، وغيرهم وله طرق كثيرة يقوى بعضها بعضا ٠

فى سند لفظه الى النبى صلى الله عليه وسلم مقال فسند معناه متواتر فانه سند القرآن نفسه ، فان الله يفضل العلم وأهل العلم بدون قيد ولا تخصيص ، فالمسلم مطالب بطلب العلم ولو فى الصين ولو لم يكن فى الصين مسلم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ٠

لا شيء ينقلب عند النفس الانسانية لذة بنفسه ، وان كان فى أول أمره مطلوبا لغيره ، مثل العلم ، تطلب العلم أولا لحاجتك اليه فى تقويم معيشة ، أو ترفيه حال أو دفاع عن نفس وملة ، ثم لاتلبث اذا أوغلت فيه أن تجد اللذة فى العلم نفسه، فتصير اللذة بتحصيله والوصول الى دقائقه غاية تقصد بنفسها وتضمحل فيها كل غاية سواها ، وعلة ذلك ظاهرة فان العلم مسرح نظر العقل ، والعقل قوة من أفضل القوى الانسانية ، بل هى أفضلها على الحقيقة ، وقد وضع لها العليم الحكيم لذة ، كما منح لكل قوة سواها نعيما ولذة ، ولست فى حاجة الى تحديد لذة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس فالحيوان يعرفها بله الانسان ، وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع عظمت لذته باستعمالها فيما وجهت له ، فيمكنك أن تستنتج من ذلك أن لا شيء عند الانسان ألذ من كشف المجهول ، واحراز المعقول وقد سمح الاسلام للمسلم أن يتمتع فى هذه الحياة الدنيا بما يلذ له مع القصد والاعتدال ٠ أفلا يكون من لذائذه ومتممات نعيمه أن يسيح فى مملكة العلم ليمتع عقله كما يسيح فى بسيط الأرض ليكسب رزقه ويقيت أهله ؟ على ان العلم كان من ضرورات معيشة المسلم أو حاجياتها كما ذكرنا فاذا طفق يستنبط ماءه للضرورة ، ويستجلى سناءه للحاجة ، فلا يلبث أن يصير هو حاجة نفسه ، وشاغله عن حاجات حسه حتى يدخل معه فى رمسه ، كما وقع لكثير من المسلمين ٠ قال أمام جليل من أئمتهم « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون الا لله » ٠

نتائج هذه الأصول

الى اين افضت طبيعة الاسلام بالمسلمين ؟ وماذا كان أثرها في أسلافهم الأولين ؟ فتح عمرو بن العاص رضى الله عنه مصر واستولى بجيشه على الاسكندرية بعد لحاق النبى صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى بست سنوات في رواية ، وتسع سنوات في رواية اخرى ، والاسلام فى طلوع فجره وتفتح نوره ، فكان من بقايا ما تركت الأزمان الأولى رجل مسيحى من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوى ، كان فى بدء أمره ملاحا يعبر الناس بسفينته وكان يميل الى العلم بطبيعته ، فاذا ركب معه بعض أهل العلم اصغى الى مذاكرتهم ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن ٤٠ سنة فبلغ فيه ما لم يبلغه الناشئون فيه من طفولتهم ، وقد أحسن من العلم فنونا كثيرة حتى عد من فلاسفة وقته واطبائه ومناطقته ٠

يقول كثير من مؤرخى الغربيين ومؤرخى المسلمين : ان عمرو ابن العاص سمع به فاستدناه منه واكرمه لعلمه ، ووقعت بينهما محبة ظهر أمرها واشتهر حتى قال احد فلاسفة الغربيين : (ان المحبة التى نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوى ترينا مبلغ ما يسمو اليه العقل العربى من الأفكار الحرة والرأى العالى ، بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ودخل فى التوحيد المحمدى أصبح على غاية من الاستعداد للجولان فى ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع) ٠

خالط المسلمون أهل فارس وسورية وسواد العراق وأدخلوهم في أعمالهم ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم حتى كانت دفاترهم بالرومية في سورية ولم تغير بالعربية الا بعد عشرات من السنين فاحتكت الأفكار بالأفكار ، وأفضت ســـماحة الدين الى أن أخـــذ المسلمون في دراسة العلوم والفنون والصنائع ٠

اشتغال المسلمين

بالعلوم الادبية والعقلية

العلوم الأدبية والعقلية

بعد ٢٠ سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام اخذ الخليفة على بن ابى طالب كرم الله وجهه يحض على تعليم الآداب العربية ويطلب وضع القواعد لها لما رأى من حاجة الناس الى ذلك ، واخذ المسلمون يتحسسون نور العلم فى ظلام تلك الفتن استرسالا مع ما يدعوهم اليه دينهم ، وتنبههم لطلبه شريعتهم ، وان كانت الحروب الداخلية التى اشتعلت نارها فى اطراف بلادهم للنزاع فى أمر الخلافة قد شغلتهم عن كل شىء من مصالحهم ، فانها لم تشغلهم عن تلمس العلوم والتناول منها بالتدريج على سنة الفطرة ، فالبراعة فى الآداب : من علم بوقائع العرب وتاريخهم ، وقول الشعر ، وانشاء البليغ من النثر ، قد بلغت فى خلافة بنى امية مبلغا لم تبلغه امة قط فى مثل مدتها ، وكان الخلفاء الامويون يعلون منزلتها ، ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء بالسير ، ثم ظهرت آثار العلوم العقلية فى آخر دولتهم ، وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الأول ٠

نقل الخلفاء الامويون دار الخلافة من المدينة الى الشام ولم يسيروا فى الزهد سيرة الخلفاء الراشدين ، فقد جاء رسول من الفرس الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلما سأل عنه دل عليه فذهب اليه فاذا هو نائم على الأرض تحت نخل البقيع بين الفقراء ، وجاءت رسل الملوك الى معاوية رحمه الله فاذا هو فى قصر مشيد محلى البنيان بأجمل ما يكون من الصنعة العربية

مزين بالجنات والرياض وينابيع الماء ، مفروش باحسن الفرش ، يرى الناظر فيه أفخر الاثاث والرياش ، ولم يكن معاوية فى ذلك قد خالف الدين أو حاد عن طريقة ، وانما تناول مباحا ، وتمتع برخصة آتاه الله اياها ، ولا يخفى ما فى ذلك من ترويج فنـــون الابداع فى الصنعة على اختلاف ضروبها ٠

اشتغالهم بالعلوم الكونية

انقضت دولة بنى أمية والناس فى ظلمات من الفتن كما قلنا ودالت الدولة لبنى العباس واستقرت فى نصابها من آل بيت النبى قرب نهاية الثلث الأول من القرن الثانى للهجرة (ســـنة ١٣٢) ثم نقل المنصور عاصمة الملك الى بغداد فصارت بعد ذلك عاصمة العلم والمدنية ايضا ، وأخذ المنصور ايضا ينشيء المدارس للطب والشريعة ، وكان قد جعل من زمنه ما ينفقه فى تعلم العلوم الفلكية ، واكمل حفيده الرشيد ما شرع فيه وأمر بأن يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بانواعها ، وجاء المأمون فوصلت به دولة العلم الى اوج قوتها ، ونالت به اكبر ثروتها ، ويقال انه حمل الى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم ما يثقل مائة بعير ، وكان من شروط صلحه مع ميشيل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكاتب الاستانة فوجد مما فيها من النفائس كتاب بطليموس فى الرياضة السماوية فأمر المأمون فى الحال بترجمته وسموه بالمجسطى ، ولا يسهل على كاتب احصاء ماترجم من كتب العلوم على اختلافها فى دولة بنى العباس أبناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

انشاؤهم دور الكتب

وقد اخذت دول الاسلام تعتنى بدور الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول سواها ، حتى كان فى القاهرة فى أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوى على مائة الف مجلد ، منها ستة آلاف فى الطب والفلك

للغير . وكان من نظامها أن تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين في القاهرة ، وكان فيها كرتان سماويتان (احداهما) من الفضة يقال أن صانعها بطليموس نفسه وأنه أنفق فيهـــا ثلاثة آلاف دينـــار (والثانية) من البرنز . ومكتبة الخلفاء في اسبانيا بلغ ما فيها ستمائة الف مجلد وكان (فهرسها) اربعة واربعين مجلدا . وقــد حققوا انه كان في أسبانيا وحدها سبعون مكتبة عمومية ، وكان في هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة .

وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب ويجعلون دورهم معاهد دراسة لما تحتوى عليه . يقال ان سلطان بخارى دعا طبيبا اندلسيا ليزوره فأجابه أن ذلك لا يمكنه لان كتبه تحتاج الى اربعمائة جمل لتحملها وهو لا يستغنى عنها كلهـــا . وكان حنين بن اســـحاق النسطورى في بغداد ممن جعل في داره مكتبة عامة يفد اليها طلاب العلوم العقلية والرياضـــية وكان يتبرع بمذاكرتهم فيما يريدون المذاكرة فيه .

انشاؤهم المدارس للعلوم

غطى بسيط المملكة الاسلامية على سعتها بالمدارس . نقول « على سعتها » لانها زادت في السعة على المملكة الرومانية بكثير ، فكنت تجد المدارس في كل الأقطار : في المغول ، في التتار ، من جهة المشرق . في مراكش ، في فاس ، في أســبانيا من جهـــة المغرب .

وكانت طريقة الأساتذة في التدريس ان كل مدرس يعد درسه ويكتب في الموضوع الذى يلقى الدرس فيه مايريد أن يكتب ، ثم يلقيه على التلامذة وهم يكتبون عنه ثم تكون هذه الدروس كتبا وأمالي تنتشر بين الناس في كل علم . وهنا نبادر الى القول بأن المؤرخين قد اجمعوا على أن جميـــع المقالات والكتب كانت تنشر ويتداولها

الناس بدون ادنى مراقبة ولا حجر ولا نقص شيء مما كتب صاحب الكتاب ، غير أن مؤرخا واحدا رأيته ذكر انه قد وضع قانون فى بعض الممالك الاسلامية لنشر كتب العقائد مقتضاه الا ينشر منها شيء الا باذن ، على أنى لا أعلم شـيئا من ذلك وقـع فى الممالك الاسلامية ايام كان الاسلام اسلاما ·

نرجع الى الكلام فى المدارس الاسلامية : يقول : (جيبون) فى كلامه على حماية المسلمين للعلم فى الشرق وفى الغرب : « ان ولاة الاقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء ، فى أعلاء مقـام العلم والعلماء ، وبسط اليد فى الانفاق على اقامة بيـوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبـه ، وكان من اثر ذلك أن ذوق العلم ووجدان اللذة فى تحصيله قد انتشر فى نفوس الناس من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة · أنفق وزير واحـد لاحد السـلاطين (هو نظام الملك) مائتى ألف دينار على بناء مدرسة فى بغـداد وجعل لها من الريع الذى يصرف فى شئونها خمسـة عشر ألف دينار فى السنة ، وكان الذين يغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء فى المملكة ، وابن أفقر الصناع فيها ، غير أن الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة وابن الغنى يكتفى بمال أبيه ، والمعلمون كانوا ينقدون رواتب وافرة » ·

انقسمت الممالك الاسلامية فى زمن من الأزمان الى ثلاثة أقسام وتنازع الخلافة ثلاث شيع كان العباسيون فى آسيا (الشرق) والأمويون فى الاندلس من أوربا (الغرب) والفاطميون فى مصر من افريقيا (الوسط) ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث مقصورا على الملك والسلطان ، ولكن كان التنافس اشد التنافس فى العلم والأدب ، وكان مرصد سمرقند قائما فى ناحية المشرق يشير الى ما كان عليه المشرقيون من العناية برياضة الافلاك ، ومرصد جيرالد فى الأندلس يجيبه بأن اهل المغرب ليسوا بأحط منهم فى الادراك ·

جميع المدارس فى البلاد الاسلامية أخذت نظام الامتحان فى المدارس الطبية عن مدرسة الطب فى القاهرة ، وكان من أشـــد النظامات وأدقها ، ولم يكن لطبيب أن يمـــارس صناعته الا على شريطة أن تكون بعد شهادة بأنه فاز فى الامتحان على شدته ، وأول مدرسة طبية أنشئت فى قارة أوربا على هذا النظام المحكم هى التى أنشأها العرب فى (ساليرن) من بلاد ايطاليا وأول مرصد فلكى أقيم فى أوربا هو الذى أقامه العرب فى أشبيلية من بلاد اسبانيا ٠

ولع المسلمون بالعلوم الكونية على اختلافها ، والفنون الأدبية بجميع أنواعها ، حتى القصص والأساطير الخيالية ، فى الاحوال الاجتماعية ، وابتدءوا بأخذ العلم عن اليونانية والسريانية ، وأخذوا ينقلون كتب الأولين من تلك الالسن الى اللغة العربية بالترجمـــة الصحيحة ٠ وكان مترجموهم فى أول الأمر مسيحيين وصابئين وغيرهم ، ثم تعلم كثير من علماء المسلمين اللسان اليونانى واللاتينى وكتبوا معاجم فى اللسانين وذلك كله ليأخذوا العلوم من أصولها ، وينقلوها الى لسانهم على حسب ما يصل اليه علمهم فيها ٠ وكان المعلمون لابناء العظمـــاء فى أول الأمر من المسيحيين واليهـــود ، ثم أنشئت المدارس الجامعة وكان المدرسون فيها من كل ملة ودين ، كل يعلم العلم الذى عرف هو بالبراعة فيه ٠

علوم العرب واكتشافها

كان علم العرب فى أول الامر يونانيا ، ولكنه لم يلبث كذلك الا دون قرن واحد ثم صار عربيا ، ولم يرض العـــربى أن يكون تلميذا لارسطو وأفلاطون أو اقليدس أو بطليمرس زمنـــا طـــويلا كما بقى الأوربى كذلك عشرة قرون كاملة من التاريخ المسيحى ٠

قالوا : ان (باكون) هو أول من جعل التجربة والمشـــاهدة قاعدة للعلوم العصرية أو أقامها مقـــام الرواية عن الأســـاتذة والتمسك بآراء المصنفين ، وأطلق العلم من رق التقليد ذلك حق في أوربا وأما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبنـــاء العلم عليها في أواخر القرن الثاني من الهجرة ·

أول شيء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجربة ، والا يكتفوا بمجـــرد المقدمات العقلية في العلوم مالم تؤيدها التجربة ، حتى لقد نقـــل جوستاف لوبون عن أحد فلاسفة الأوربيين أن القاعدة عند العرب هي « جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفا » وعند الأوربي الى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي « اقرأ في الكتب وكرر ما يقول الأساتذة تكن عالما » فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلبت الحال ، وماذا أعقب من سوء المآل ·

قال (ديلامبر) في تاريخ علم الهيئة « اذا عددت في اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين أمكنك أن تعد في العرب عددا كبيرا غير محصور » وأما في الكيمياء فلا يمكنك أن تعد مجربا واحد عند اليونانيين ، ولكنك تعد من المجربين مئين عند العرب · ولهما عدت الكيمياء الحقيقية من أكتشاف العرب دون سواهم · وقد كانو يعدون الهندسة والفنون والرياضة من الآلات المنطقية ، يستعملونها في الاستدلال على القضايا النظرية ، وهي من أصـــدق الادلة في الايصال الى المجهولات كما هو معروف ·

والعرب هم أول من استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على أقسام الزمن ، وهم أول من أتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض ·

وقد اكتشفوا قوانين لثقل الأجسام جامدها ومائعهـــا حتى وضعوا لها جداول فى غاية الدقة والصحة ، كما وضعوا جداول للارصاد الفلكية ، وكانت تلك الجداول معروفة يطلع عليها الناظرون فى سمرقند وبغداد وقرطبة حتى لقد وصلوا بتلك القوانين الى ما يقرب من اكتشاف الجاذبية ٠

ولا يمكننى فى مقالى هذا أن اعد ما اكتشف العرب ولا مازادوه فى العلوم على اختلاف أنواعها فذلك يحتاج الى سفر كبير ، وقد أحصى ذلك أهل المعرفة والانصاف من فلاسفة الأوربيين ومؤرخيهم ، وربما يتيسر لابناء الأمة العربية أن ينشروا ذلك لاخوانهـم حتى يعرفوا ما كان عليه أسلافهم ، ولكننى اذكر كلمة قالها بعض حكماء الغربيين (١) ٠

« تأخذنا الدهشة أحيانا عندما ننظر فى كتب العرب فنجـــد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد الا فى زماننا ، كالرأى الجديد فى ترقى الكائنات العضوية وتدرجها فى كمال أنواعها ، فان هذا الرأى كان مما يعلمه العرب فى مدارسهم وكانوا يذهبون به الى أبعد مما ذهبنا، فكان عندهم عاما يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن ٠ والأصل الذى بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقى المعادن فى أشكالها ٠ قال الخازنى اذا سمع الشعب الجاهل ما يقال بين العلماء : ان الذهب قد تقلب فى الأشكال المختلفة حتى صار ذهبا ظن من هذا انه مر فى صور معادن أخرى فكان رصاصا ثم قصديرا ثم صفرا ثم فضـــة ثم صار بعد ذلك ذهبا ولا يعلم أن الفلاسفة اذا قالوا ذلك فانمـــا يقصدون منه ما أرادوه من قولهم فى الانسان أنه وصل الى حالته

---

(١) هو الفيلسوف درابر الأمريكانى

الحاضرة بالتدريج ومن طريق الترقى وهم لم يعنوا بقولهم هـذا انه تقلب في صور الأنواع المختلفة كان كان ثورا ثم حمارا ثم فرسا ثم قردا ثم صار بعد ذلك انسانا » •

ويقول الفيلسوف جوستاف لبون : « ان العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » •

وهنا أنكر على بعض فلاسفتهم ما نقلوه عن ابن رشد من أنه ذهب فى حرية الرأى الى نقض أصل الدين وقال : ان الروح لابقاء لها بعد فناء الجسد وانما الذى يبقى هو أرواح الأنواع • فان هذا خطأ عرض لهم من سوء فهم كلامه فى بيان بقـاء الأنواع دون الأشخاص فانه قال كما قال أرسطو وغيره : ان الأشخاص توجد وتفنى وأما الأنواع فهى باقية لا تزول ؛ وهذا باب آخر لا يغاير بالمرة ما استنتجوا منه كما أخطئوا فى قولهم عنه انه كان يعتقد بأن الله روح العالم يظهر فى صوره والكل يرجع اليه بمعنى انه يفنى فى ذاته ولا يبقى فى العالم باق آخر • وهو يقرب من قولهم السابق • فان ابن رشد كان مسلما يعرف أن الاسلام لا ينافى العلم وانما ينافى هذا الضرب من الوهم ، الذى لم يسقط فيه أحد الا من عثرة فى طريق العلم ، أو الاسترسال مع الخيال • وكثير ممن سكروا بهذا الرأى أفاقوا منه • ولكن كتب ابن رشد التى بين أيدينا تبعد بنا عن نسبة هذا الرأى اليه كما سبق بيانه ، ولكنى لا أنكر نسبته لو نسب الى ابن سبعين وهو ممن أخذ عن تلاميذ ابن رشد فان فى كلامه ما يدل على ذلك •

ويقول فيلسوف آخر : « ان العلوم التى تلقاها العـرب عن اليونانيين وغيرهم وكانت ميتة بين دفات الدفاتر ، مقبـورة بين جدران المكاتب ، أو مخزونة فى بعض الرءوس كأنها أحجار ثمينة فى بعض الخزائن ، لاحظ للانسانية منها سوى النظر اليها ـ صارت

عند العرب حياة الآداب ، وغذاء الأرواح ، وروح الثروة ، وقوام الصنعة ، ومهمازا للقوى البشرية يسوقها الى كمالها الذى أعدت له • وليس فى الأوربيين من درس التاريخ وحكم العقل ثم ينكر ان الفضل ـ فى اخراج أوربا من ظلمة الجهل الى ضياء العلم ، وفى تعليمها كيف تنظر وكيف تتفكر وفي معرفتها أن التجربة والمشاهدة هما الاصلان اللذان يبنى عليهما العلم ـ انما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التى حملوها اليهم وأدخلوها من أسبانيا وجنوب ايطاليا وفرنسا عليهم • وكان من حظ العلم العربى والأدب المحمدى عندما دخلا الى ايطاليا ان البابا كان غائبا لان كرسيه كان قد انتقل الى فرنسا فى أفنيون نحو سبعين سنة فدب العلم الى شمال ايطاليا واستقر به القرار هناك ، ان شوارع باريس لم تفرش بالحجارة الا فى القرن الثانى عشر وقد رصت بالبلاط على نحو مارصت به مدن أسبانيا » اهـ •

ويقول آخر : « لا أدرى كيف أعطانا الاسلام فى مدة قرنين عددا من الفلكيين يطول سرد أفراده وان الكنيسة تسلطت على العالم المسيحى اثنى عشر قرنا فى أوربا ولم تمنحنا فلكيا واحدا » •

هذا النماء والزكاء العلمى لم يكن خاصا بطائفة دون طائفة بل كان الناس فى التمكن من تناوله سواء ، وانما كان التفاضل بالجد والعمل ، والفضل فى ذلك كله لحلم الخلفاء وأعمالهم وسماحة الدين ويسره وسهولته على أهله وأهل ذمته ، قال بعض فلاسفة الغربيين قولا يعرفه الحق وتثبته المشاهدة : « ان شعوب الأرض لم ترقط فاتحا بلغ من الحلم هذا المبلغ (يريد فاتحى الاسلام على اختلافهم) ولا دينا بلغ فى لينه ولطفه هذا الحد » •

تشجيع العلم والعلماء

ان الخلفاء الذين يقال عنهم انهم رؤساء دين وحكام سياسة معا كانوا هم بأنفسهم المتعلمين للعلوم الداعين الى تعلمها ، كانوا العالمين العاملين • كان خليفة كالمأمون يضطهد أحيانا أعداء الفلسفة ، وقد عرف التاريخ كثيرين من أرباب الشهرة الذين قضوا في سجنه الشهور أو السنين ، لانهم كانوا يعادون الفلسفة ظنا منهم أن منها ما يعدو على الدين فيفسده ، هل رأيت فى غير الاسلام رئيسا دينيا يضطهد أعداء العلم وجفاة الفلسفة ؟ لعلك لا تجده أبدا •

كان أهل العلم والأدب عامة يجدون من الاحترام عند الخلفاء والأمراء والخاصة ما يليق بهم كيفما كانت حالهم ، واضرب المثل بالشيخ أبي العلاء المعرى ، لشهرته بين الناس بما يشبه الزندقة •

يذكر على بن يوسف القفطى أن صالح بن مرداس ــ صاحب حلب ــ خرج الى المعرة وقد عصى أهلها عليه ، فنازلها وشرع فى حصارها ورماها بالمنجنيق ، فلما أحس أهلها بالغلب ، سعوا الى أبى العلاء بن سليمان وسألوه أن يخرج ويشفع فيهم ، فخرج ومعه قائد يقوده فأكرمه صالح واحترمه ، ثم قال : ألك حاجة ؟ قال : الأمير ــ أطال الله بقاءه ــ كالسيف القاطع لان مسه ، وخشن حده ، وكالنهار البالغ ، قاظ وسطه وطاب برده (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) فقال له صالح : قد وهبتها لك ، ثم قال : انشدنا شيئا من شعرك لنرويه ، فأنشده على البديهة أبياتا فيه ، فترحل صالح • فانظر كيف وهب الأمير بلدا عصى أهله لفيلسوف معروف بما هو عنه معروف •

ولو ذكرت مانال العلماء والفلاسفة عند الامراء والخلفاء لطال بي المقال اكثر مما طال ، وفيما سبق كفاية لمكتف ·

ازالة شبهتين

قد يتوهم قوم أن الاضطهاد قد يظهر في مقت العامة وخلقهم ما يخلقون من المفتريات على أهل العلم والفكر الحر ، وهمس بعضهم في آذان بعض ، وتغامزهم على أهل الفضل ، ولزهم أياهم بالالقاب ، بل واحتقارهم في بعض الاحيان · وهذا النوع منه عند المسلمين بلا نكير · وهو خطأ ظاهر لان هذا النوع — ممن يكره أهل العلم — لا تخلو منه أرض ولا تطهر منه بلاد مهما بلغ أهلها من الحرية ، ومهما بلغ ذوق العلم من نفوس أهلها ، فان القائمين على عقيدة الكاثوليك الى اليوم في أرض فرنسا نفسها يمقتون الفلاسفة الذين يظهرون بمعاداة للكنيسة ، ويكتبون مايوهن قواعدها وقد يختلق عليهم أحزاب الكاثوليك مالم يقولوه ، ويرون أن النظر في كتبهم لا يجوز في شريعة الدين ، ونحن لا نرتاب في أن نحو هذا كان عند المسلمين أيام كانت سوق الفلسفة رائجة عندهم ، ولكنه ليس من الاضطهاد في شيء ، وانما هي نفرة الانسان مما لا يعرف ، مع ترك صاحبه وشأنه يمضي في سبيله الى حيث يشاء ·

يقول آخرون : ان التاريخ يروى لنا أن بعض أرباب الأفكار قد أخذه السيف لغلوه في فكره ، فلم يترك له من الحرية ما يتمتع به الى منتهى ما يبلغ به ، وليس يصح أن ينكر ما صنع الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة ·

وأقول : ان كثيرا من الغلو اذا انتشر بين العامة افسد نظامها واضطرب أمنها ، كما كان من آراء الحلاج وأمثاله (١) فتضطر

---

(١) ذكر امام الحرمين في كتابه « الشامل » في أصول الدين انه كان بين الحلاج والجنابي رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة ، وان ذلك هو السبب الحقيقي في قتل الحلاج ·

السياسة للدخول فى الأمر لحفظ أمن العامة ، فتاخذ صاحب الفكر ، لا لانه تفكر ولكن لانه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه ، بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه ، مع ان غيره فى غنى عما يراه هو حقا له ، وتخشى الفتنة اذا استمر مدعى الحرية فى غلوائه ، فلهذا يرى حفاظ النظام أن أمثال هؤلاء يجب أن ينقى منهم المجتمع ، صونا له عما يزعزع أركانه • ونحن نرى الفلسفة اليوم تضطهد الدين هذا الضرب من الاضطهاد • ألم تقض الحكومة الفرنسية على الراهبين والراهبات أن تكون جمعياتهم ومدارسهم تحت سيطرة الحكومة ؟ وألا ينشأ شيء منها الا باذن من الحكومة ، ومن لم يخضع لذلك تنحل جمعيته وتقفل مدارسه بقوة السلاح ، وقد ينفى من البلاد كما نفى كثيرون فى سنين سابقه (١) ولكن هل يسمى هذا اضطهادا ؟ كلا ، انما الاضطهاد حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش واضطهاد رؤساء الاصلاح بعدها فى أول نشاتهم •

ماذا يقول القائلون ؟ ان التعليم عند المسلمين كان غريبا أمره ، يكاد يكون خفيا سره ، مسجد أو مدرسة تابعة لمسجد ، يجلس فيها للتدريس الفقيه والمتكلم والمحدث والنحوى والمتأدب والفيلسوف والفلكى والمهندس ، ينتقل الطالب من بين يدى الفقيه ليجلس بين يدى الفيلسوف ، ومن مجلس الحديث الى مجلس الأدب ، واذا وقعت مذاكرة بينهم فى مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها فى الاقناع والالزام ، وسقطت قيمة الغلو فى التعبير ، وأخذ التسامح بينهم مأخذه •

كان عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة واشدهم صلابة فى أصول مذهبه ، ومع ذلك هو من مشايخ الامام البخارى صاحب الصحيح ، وكانت له منزلة عند المنصور تعلو كل ذى منزلة عنده ، حتى قال

(١) أغرب من هذا أن أحد الأساتذة فى جامعة أميركية قرر فيها نظرية دارون المعروفة فأنكرها عليه جمهور الطلبة لمخالفتها للتوراة فطرد من المدرسة •

له يوما وهو خارج من بين يديه « رميت لكل الناس حبا فلقطوا الا اياك يا عمرو بن عبيد » فانظر كيف كان لامام من أئمة السنة أن يصل سنده في الحديث برئيس من رؤساء المعتزلة ولا يرى في ذلك بأسا ؟

اذا عد عاد بعض رجال العلم الذين أخذتهم القسوة في الاسلام وقتلتهم حماقة الملوك باغراء الفقهاء وأهل الغلو في الدين ، فما عليه الا أن ينظر في أحوالهم فيقف لأول وهلة على أن الذي أثار أولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين ، وان الغيرة عليه ليست هي الباعث لهم على الوشاية بهم ، وطلب تنكيلهم ، وانما تجد الحسد هو العامل الأول في ذلك كله والدين آلة له · ولهذا لا ترى مثل ذلك الاذى يقع الا على قاضي قضاة كابن رشد (ورجوع الحاكم الى العفو عنه وانزاله منزلته دليل على ذلك) أو وزير ، أو جليس خليفة أو سلطان ، أو ذي نفوذ عظيم بين العامة · وهذا كما يقع من الفقهاء مثلا لايذاء الفلاسفة ، يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض ، لاهلاك بعضهم بعضا ، كما يشهد به العيان ، ويحكي لنا التاريخ ، فليس هذا كذلك معدودا من معنى اضطهاد الدين للفلسفة ، لان التحاسد أكثر ما يقع بين من لا دين لهم على الحقيقة وان لبسوا لباسه · وانما ذلك الاضطهاد هو الذي يحمل عليه محض الاختلاف في العقيدة أو ظن المخالفة للدين في شيء من العلم أو العمل لضيق الدين عن أن يسع المخالف بجانبه وهذا لم يقع في الاسلام ، اللهم الا أن يكون حادث لم يصل الينا ·

هذه طبيعة الدين الاسلامي عرضت عليك في أهم عناصرها ومقومات مزاجها · وهذا كان أثرها في العالم الشرقي والغربي وهذه سعة فضل الدين وقوته على احتمال مخالفيه وتيسيره لأولئك

المخالفين ان يحتموا به متى رضوا بأن يستظلوا بظله ، هل فى هذا خفاء على ناظر ؟ وهل يرضى لبيب لنفسه أن ينكر الضوء الباهر ؟ افلا يبسم الاسلام عجبا وهو فى أشد الكرب لمقوق أبنائه ، من أديب لم يكن يعده من أعدائه ، ان لم يحسبه فى أحبائه ، عندما يراه يسدد سهمه اليه ، ويجور ، كما يجور الجائرون فى حكمه عليه ؟؟

الاســـلام

فى أوائل القرن العشرين

الاحتجاج بالمسلمين على الاسلام

ربما يسال سائل فيقول : سلمنا أن طبيعة الاسلام تابى اضطهاد العلم بمعناه الحقيقي وانه لم يقع من المسلمين الأولين تعذيب ، ولا احراق ، ولا شنق لحملة العلوم الكونية ، ومقومي العقول البشرية ، ولكن أليس العلماء من المسلمين اليوم أعداء العلوم العقلية ، والفنون العصرية ، أو ليس الناس تبعا لهم ؟ أفلا يكون للاديب عذره فيما يراه ويسمعه حوله ؟ ألم يسمع بأن رجلا في بلاد اسلامية غير البلاد المصرية(١) كتب مقالا في الاجتهاد والتقليد وذهب فيه الى ما ذهب اليه أئمة المسلمين كافة ، ومقالا بين فيه رأيه في مذهب الصوفية ، وقال انه ليس مما انتفع به الاسلام بل قد يكون مما رزىء به أو ما يقرب من هذا — وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله — فلما طبع مقاله في مصر تحت اسمه هاج عليه حملة العمائم ، وسكنه الأثواب العباعب ، قالوا انه مرق من الدين ، أو جاء بالافك المبين ، ثم رفع أمره الى الوالي فقبض عليه وألقاه في السجن ! فرفع شكواه الى عاصمة الملك وسأل السلطان أن يامر بنقله الى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه ، بين يدى عادل لا يجور ، ومهيمن على الحق لا يحيفه ، الخ ما يقال في الشكوى فاجيب طلبه ، لكن لم ينفعه ذلك كله ، فقد صدر الأمر هناك أيضا بسجنه ولم يعف عنه الا بعد أشهر ، مع أنه لم يقل الا ما يتفق مع أصول الدين ، ولا ينكره القارىء والكاتب ، ولا الآكل والشارب ٠

ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسي (والد السنوسي صاحب الجغبوب) كتب كتابا في أصول الفقه زاد فيه بعض

---

(١) هذا الرجل هو السيد عبد الحميد الزهراوى الحمصى الشهير رحمه الله ٠

مسائل على أصول المالكية ، وجاء فى كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة ، وقد يرى ما يخالف رأى مجتهد أو مجتهدين ، فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية (رحمة الله تعالى) وكان المقدم فى علماء الجامع الأزهر الشريف(١) فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسى ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين ، واتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترىء الأستاذ على طعن الشيخ السنوسى بالحربة لو لاقاه وانما الذى خلص السنوسى من الطعنة ، ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة ، وارتكاب الجريمة باسم الشريعة ، هو مفارقة السنوسى للقاهرة قبل أن يلاقيه الأستاذ المالكى ·

هل غاب عن الأذهان ما كان ينشر فى الجرائد من نحو ثلاث سنين بأقلام بعض علماء الجامع الأزهر من المقالات الطويلة الاذيال الواسعة الاردان ، فى استهجان ادخال علم تقويم البلدان (الجغرافية) بين العلوم التى يتلقاها طلبة الجامع الأزهر ؟ وكان كتاب تلك المقالات يعرضون بمن أشار بادخال هذا العلم وغيره بين تلك العلوم وأنه انما يريد الغض من علوم الدين (٢) ألم تنشر فى العام الماضى فصول بأقلام بعضهم تشير الى مطعن فى عقيدة البعض الآخر وارادة التشهير به مع أنه لم يجهر بمنكر ولم يقل قولا يبعد من الكتاب والسنة ؟

ألم يحمل الينا الرواة ما عند علماء الأفغان والهند والعجم من شدة التمسك بالقديم ، والحرص على ماورثوه عن آبائهم الأقربين ، واقامة الحرب على كل من حاول أن يزحزحهم أصبعا

---

(١) هو الشيخ عليش الذى كان ينكر على السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده أيضا طريقتهما فى تحقيق المسائل الشرعية على طريقة السلف ·

(٢) يعنى الأستاذ بهذا نفسه فهو الذى أشار بتعليم هذه العلوم ·

عما كان عليه سلفهم ، وان كان فى البقاء عليه تلفهم ، وما عليه الحال اليوم فى حكومة المغرب من الغلو فى التعصب ، والمعاقبة بقطع بعض الأعضاء فى شرب الدخان ، أو القتل فى كلمة ينكرها السامعون ، وان أجمع عليها المسلمون الآخرون ؟

ثم الا يتخيل المتأمل أنه يسمع من جوف المستقبل صخبا ولجبا ، وضوضاء وجلبة ، وهيعات مضطربة ، اذا قيل أنه ينبغى لطلبة الأزهر أن يدرسوا طرفا من مبادىء الطبيعة أو يحصلوا جملة من التاريخ الطبيعى ؟ الا تقوم قيامة المتقين ، ألا يصيحون أجمعين أكتعين أبتعين : هذا عدوان على الدين ، هذا توهين لعقدة المتين ، هذا تغرير بأهله المساكين ، ولا يزالون يشيدون بهذا الى الا يبقى شيء عرف له اسم فى اللغة الا الصقوه بهذه البدعة فى زعمهم ·

هل هذه الحال جديدة على المسلمين ، حتى يقال أنها عارض عرض عليهم ، أو مرض من الأمراض الوافدة اليهم ؟ لا يسهل على من يعرض أحوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة أن يظن أن هذه الحال من العلل الطارئة على أمزجة الأمم ، خصوصا عندما يجد الوحدة فى الصفات ، والشمول فى جميع الاعتبارات ، فلو أخذ مسلما من شاطىء الاطلانطيقى ، وآخر من تحت جدار الصين لوجد كلمة واحدة تخرج من فميهما وهى (انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) وكلهم أعداء لكل مخالف لما هم عليه ، وان نطق به الكتاب ، وأجتمعت الآثار ·

اللهم الا فئة زعمت أنها نفضت غبار التقليد ، وأزالت الحجب التى كانت تحول بينها وبين النظر فى آيات القرآن ومتون الأحاديث لتفهم أحكام الله منها ، ولكن هذه الفئة أضيق عطنا وأحرج صدر

من المقلدين ، وان انكرت كثيرا من البدع ، ونحت عن الدين كثيرا مما أضيف اليه وليس منه ، فانها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقيد به ، بدون التفات الى ما تقتضيه الأصول التى قام عليها الدين ، واليها كانت الدعوة ، ولأجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم اولياء ، ولا للمدنية السليمة احباء (١) ٠

هل يمكن أن ينكر أحد جمود الفقهاء ووقوفهم عند عبارات المصنفين على تباينها واختلاف واضطراب الآراء فى فهمها واذا عرضت حادثة من الحوادث ولم يكن لمصنف معروف رأى فيهـا أحجموا عن ابداء الرأى ، واجتهدوا فى تحويلها عن حقيقتها الى أن يتفق مع قول معروف فى كتاب من الكتب ، حتى لقد جاء طالب علم من بلد من بلاد الدول العثمانية وأراد الالتحاق باحد الأروقة فى الجامع الأزهر فوقع الشك : هل بلده مما لأهله استحقاق فى ذلك الرواق على حسب نص الواقف ؟ فقال قائل لشيخ الرواق : ان كتب تقويم البلدان تشهد بأن البلد داخل فى شروط الواقف ٠ فقال : اننى لا اقنع بما فى تلك الكتب ، وانما الذى يصح ان آخذ به هو أن يكون فقيه (ممن مات) قال ان هذا البلد من قطر كذا ، وهو الذى وقف الواقف على أهله ٠ واذا قيل لأحدهم ٠ ان الائمة انفسهم لم يعينوا مواقع البلدان ولم يضعوا لنا جدولا لـ[illegible] ما يحويه كل قطر وبيان الحدود التى ينتهى اليها . [illegible]ن أصول ديننا تسمح لنا بان نأخذ بأقوال العلماء فى [illegible]ه الفنون (وهم منـا) وبتواتر الأخبار وما أشبه ذلك من البديهيات قال : انما اريد نصا فقهيا ، لا [illegible]ليلا عقلي[illegible] ٠

---

(١) انه يعنى بهذه الفئة الوهابيين ، فهو يحمد منهم ترك البدع والاهتداء بالسنن وتقديم الأثر ، على آراء البشر ، ولكنه ينكر عليهم ضيق العطن دون العناية بما أرشدت اليه النصوص من علوم الاكوان ، ومقدمات المدنية والعمران ٠

وإذا قيل لهم : اختلت الشئون ، وفسدت الملكات والظنون وساءت أعمال الناس ، وضلت عقائدهم ، وخوت عباداتهم من روح الاخلاص ، فوثب بعضهم على بعض بالشر ، وغالت أكثرهم أغوال الفقر ، فتضعضعت القوة ، واخترق السياج ، وضاعت البيضة وانقلبت العزة ذلة ، والهداية ضلة ، وساكنتكم الحاجة ، والفتكم الضرورة ، ولا تزالون تألمون مما نزل بكم وبالناس ، فهلا نبهكم ذلك الى البحث فى أسباب ما كان سلفكم عليه ، ثم علل ما صرتم وصار الناس اليه ؟ قالوا : ذلك ليس الينا ، ولا فرضه الله علينا وانما هو للحكام ينظرون فيه ، ويبحثون عن وسائل تلافيه ، فان لم يفعلوا — ولن يفعلوا — فذلك لأنه آخر الزمان ، وقد ورد فى الاخبار ما يدل على أنه كائن لا محالة ، وان الاسلام لابد أن يرفع من الأرض ، ولا تقوم القيامة الا على لكع بن لكع واحتجوا على اليأس والقنوط بآيات وأحاديث وآثار تقطع الأمل ، ولا تدع فى نفس حركة الى عمل ؟!

رأى رينــان فى الاســلام

هذا الجمود — الذى لو أردنا بيان ما امتد اليه من طيات الأفكار ، وثنيات الوجدان ، لكتبنا فيه كتابا — هو الذى حمل المسيو رينان الفيلسوف الفرنسى المشهور أن يقول فى عرض كلام له فى تساهل المذاهب الدينية مع العلم ، نقلته عنه الجامعة « على أننى أخشى أن يثبت الدين الاسلامى وحده فى وجه هذا التسامح العام فى العقـائد ، ولكننى أعرف أن فى نفوس بعـض الرجـال المتمسكين بآداب الدين الاسلامى القديمة وفى بضـعة من رجـال الآستانة وبلاد الفرس جراثيم جيدة ، تدل على فكر واسع ، وعقل ميال الى المسامحة ، الا أننى أخشى أن تختنق هذه الجراثيم بتعصب

بعض الفقهاء ، فاذا اختنقت قضى على الدين الاسلامى · ذلك أنه من الثابت الآن أمران ـ الأول : ان التمدن الحديث لا يريد اماتة الأديان بالمرة لأنها تصلح أن تكون وسيلة اليه · والثانى : أنه لا يطيق أن تكون الأديان عثرة فى سبيله · فعلى هذه الأديان أن تسالم وتلين ، والا كان موتها ضربة لازب » هذا كلام رينان بتصرف لفظى قليل ·

فمن أين يكون هذا الجمود العام ، الذى سمح للطاعنين أن يحكموا على الاسلام ، بأنه عثرة فى طريق المسلمين يسقط بهم دون أن ينالوا فلاحا فى سعيهم ، أو نجاحا فى أعمالهم ؟ من أين يكون هذا الجمود ان لم يكن من طبيعة الدين ؟ ومن أين يكون ما نرى ما شاهدناه من الحوادث ان لم يكن ناشئا من أصول الدين ؟ فان لم تسلم بأن هذا اضطهاد ، وأن الاضطهاد من لوازم الدين الاسلامى ، فعليك أن تسلم بأنه عداوة للعلم أو اشمئزاز منه · أو استهجان له ، أو احتقار لشأنه · وأحد هذه الأمور كاف اذا عم بين المسلمين فى أن ينفر بهم عن كل مجد ، وأن يحرمهم كل نفع · وأن يحقق فيهم ما تنبأ به رينان وغيره فما قولك فى هذا ؟؟

الجـــواب

أقول هذا كلام فيه شية من الحق ، ولمعة من الصدق ، أما ما نسمعه حولنا من سجن من قال بقول السلف فليس الحامل عليه التمسك بالدين ، فان حملة العائم انما حركهم الحسد لا الغيرة · وأما صدور الأمر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة ، والخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد ، فتنتشر عداوة فينتبه غافل آخر ، ويتبعه ثالث ، ثم ربما تسرى العدوى من الدين الى غير الدين ـ الى آخر ما يكون من حرية الفكر (يعوذون بالله منها) ·

فان شئت أن تقول أن السياسة تضسطهد الفـكر أو الدين أو العلم فأنا معك من الشاهدين • أعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن معنى السياسة ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ومن كل خيال يخطر ببالى من السياسة ، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل فى السياسة ، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس •

يذلك على أن العقوبة سياسية أن الرجل كان يقول بقول السلف من أهل الدين • لا تقل أن هذه السياسة من الدين ، فانى أشهد الله ورسوله وملائكته وسلفنا أجمعين ، أن هذه السياسة من أبعد الأمور عن الدين ، كأنها الشجرة التى تخرج فى أصل الجحيم (طلعها كأنه رءوس الشياطين * فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم أن لهم عليها لشوبا من حميم * ثم أن مرجعهم لالى الجحيم * فهم على آثارهم يهرعون) •

جمود المسلمين واسبابه

وأما ما وصفت بعد ذلك من الجمود فهو مما لا يصح أن ينسب الى الاسلام ، وقد رأيت صورة الاسلام فى صفائها ونصوع بياضها ليس فيها ما يصح أن يكون أصلا يرجع اليه شيء مما ذكرت ولا مما تنبأ بسوء عاقبته (رينان) وغيره • وانما هى علة عرضت على المسلمين عندما دخل على قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الاسلام فى أفئدتهم) وكان السبب فى تمكنها من نفوسهم واطفائها لنور الاسلام من عقولهم ، هو السياسة كذلك ، هو تلك الشجرة الملعونة فى القرآن عبادة الهوى واتباع خطوات الشياطين — هو السـياسة •

لم أر كالاسلام دينا حفظ أصله ، وخلط فيه أهله ، ولا مثله سلطانا تفرق عنه جنده ، وخفر عهده ، وكفر وعيده ووعده ، وخفى على الغافلين قصده ، وان وضح للناظرين رشـــده ، أكل الزمان أهله الأولين ، وأدال منهم خشارة(١) من الآخرين ، لا هم فهموه فأقاموه ، ولا هم رحموه فتركوه ، سواسية من الناس اتصلوا به ، ووصلوا نسبهم بسـببه وقالوا نحن أهـله وعشـيرته ، وحمـاته وعصبته ، وهم ليسوا منه شيء الا كما يكون الجهل من العلم • والطيش من الحلم ، وأفن الرأى من صحة الحكم •

انظر كيف صارت مزية من مزايا الاسلام سببا فيما صار اليه أهله : كان الاسلام دينا عربيا ، ثم لحقه العلم فصار علمـا عربيا ، بعد أن كان يونانيا ، ثم أخطأ خليفة فى السياسة فاتخـذ من سعة الاسلام سبيلا الى ما كان يظنه خيرا له • ظن ان الجيش العربى قد يكون عونا لخليفة علوى . لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبى صلى الله عليه وسلم فاراد ان يتخذ له جيشا أجنبيا من الترك والديلم وغيرهما من الأمـم التى ظـن انه يسـتعبدها بسلطانه ، ويصطنعها باحسانه ، فلا تساعد الخارج عليه ، ولا تعين طالب مكانه من الملك ، وفى سعة أحكام الاسلام وسهولته ما يبيح له ذلك ، هنالك استعجم الاسلام وانقلب عجميا •

خليفة عباسى أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه ، وبئس ما صنع بأمته ودينه أكثر من ذلك الجند الأجنبى واقام عليه الرؤساء منه . فلم تكن الا غشية أو ضحاها حتى تغـلب رؤسـاء الجنـد على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة فى قبضتهم ،

---

(١) الخشارة بالمعجمتين كالحثالة وزنا ومعنى : الردىء وما لا خير فيه من كل شيء • من خشارة الشعير وهى ما لا لب له وخشارة التمر هى رديئة والشيص منه ، وحثالة الطعام ما سقط منه اذا نقى •

ولم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الاسلام والقلب الذى هذبه الدين ، بل جاءوا الى الاسلام بخشونة الجهل ، يحملون ألوية الظلم ، لبسوا الاسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شيء الى وجدانهم ، وكثيرا منهم كان يحمل الهه معه يعبده فى خلوته ، ويصلى مع الجماعات لتمكين سلطته ، ثم عدا على الاسلام آخرون كالتتار وغيرهم ، ومنهم من تولى سلطته ، ثم عدا على الاسلام آخرون كالتتار وغيرهم ، ومنهم من تولى أمره ٠

أى عدو لهؤلاء اشد من العلم الذى يعرف الناس منزلتهم ، ويكشف لهم قبيح سيرهم ؟ فمالوا على العلم وصديقه الاسلام ميلتهم ، أما العلم فلم يحفلوا باهله ، وقبضوا عنه يد المعونة ، وحملوا كثيرا من أعوانهم أن يندرجوا فى سلك العلماء وأن يتسربلوا بسرابيله ، ليعدوا من قبيله ، ثم يضعوا للعامة فى الدين ما يبغض اليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه ، ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين ، زعموا الدين ناقصا ليكملوه ، او مريضا ليعللوه ، أو متداعيا ليدعموه ، أو يكاد ينقض ليقيموه ٠

نظروا الى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية ، وفى عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية ، فاستعادوا من ذلك للاسلام ما هو براء منه ، لكنهم نجحوا فى اقناع العامة بأن فى ذلك تعظيم شعائره ، وتفخيم أوامره ، والغوغاء عون الغاشم ، وهم يد الظالم ، فخلقوا لنا هذه الاحتفالات ، وتلك الاجتماعات ، وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة ، وأركس الناس فى الضلالة وقرروا أن المتأخر ، ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم ، وجعلوا ذلك عقيدة ، حتى يقف الفكر ، وتجمد العقول ، ثم بثوا أعوانهم فى أطراف الممالك الاسلامية ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يقنع العامة ، بأنه لا نظر

لهم فى الشئون العامة ، وأن كل ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ، ومن دخل فى شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه ، وأن ما يظهر من فساد الأعمال ، واختلال الأحوال ، ليس من صنع الحكام ، وانما هو تحقيق لما ورد فى الأخبار من أحوال آخر الزمان ، وأنه لا حيلة فى اصلاح حال ولا مآل ، وان الاسلم تفويض ذلك الى الله ، وما على المسلم الا أن يقتصر على خاصة نفسه • ووجدوا فى ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك ، وفى الموضوعات والضعاف ما شد أزرهم فى بث هذه الأوهام •

وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضلين ، وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم فى جميع الأطراف ، واتخذوا من عقيدة القدر مثبطا للعزائم ، وغلا للايدى عن العمل • والعامل الأقوى فى النفوس على قبول هذه الخرافات انما هو السذاجة ، وضعف البصيرة فى الدين ، وموافقة الهوى – أمور اذا اجتمعت أهلكت ، فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ، ورسخ فى نفوس الناس من العقائد ما يضارب أصول دينهم ويباينها على خط مستقيم كما يقال •

هذه السياسة – سياسة الظلمة وأهل الأثرة – هى التى روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه ، وسلبت من المسلم أملا كان يخترق به أباق السموات ، وأخلدت به الى يأس يجاور به العجماوات، فجعل ماتراه الآن مما تسميه اسلاما فهو ليس باسلام، وانما حفظ من أعمال الاسلام صورة الصلاة والصوم والحج ، ومن الأقوال قليلا منها حرفت عن معانيها ، ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات الى الجمود الذى ذكرته وعدوه دينا ، نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ودينه ، فكل ما يعاب

الأن على المسلمين ليس من الاسلام ، وانما هو شيء آخر سموه اسلاما ، والقرآن شاهد صادق (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) يشهد بأنهسم كاذبون ، وأنهم عنسه لاهون ، وعما جاء به معرضون ، وسنوفى لك الكلام فى مفاسد هذا الجمود ، ونثبت أنه علة لابد أن تزول ٠

مفاسد هذا الجمود ونتائجه

طال امد هذا الجمود لاستمرار عمل العاملين فى المحافظة عليه ، وولع شهواتهم بالدفاع عنه ، وقد حدثت عنه مفاسسد يطول بيانها ، وانما يحسن اجمال القول فيها ٠

كان الدين هو الذى ينطلق بالعقل فى سعة العلم ، ويسيح به فى الأرض ، ويصعد به الى أطباق السماء ، ليقف به على أثر من آثار الله ، أو يكشف به سرا من اسراره فى خليقته ، او يستنبط حكما من احكام شريعته ، فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ما تشاء ، وتبلغ من التمتع بها ما تريد ٠ فلما وقف الدين ، وقعد طلاب اليقين ، وقف العلم وسكنت ريحه ، ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولكنه سار سير التدريج ٠

جناية الجمود على اللغة

أول جناية لهذا الجمود كانت على اللغة العربية وأساليبها وآدابها فان القوم كانوا يعنون بها لحساجة دينهم اليهسا ــ اريد حاجتهم فى فهم كتابهم الى معرفة دقائق أساليبها ،.وما تشير اليه هيئة تراكيبها ، وكانوا يجدون أنهم لن يبلغسوا ذلك حتى يكونوا عربا بملكاتهم ، يساوون من كانوا عسربا بسسلائقهم ٠ فلمسا

لم يبق للمتأخر الا الأخذ بما قال المتقدم ، قصر المحصلون تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم ، واكتفوا بأخذ حكم الله منه بدون أن يرجعوا الى دليله ، ولو نظروا فى الدليل فرأوه غير دال له بل دالا مخصصه ، بأن كان عرض له فى فهمه ما يعرض للبشر الذين لم يقرر الدين عصمتهم ، لخطئوا نظرهم وأعمد أبصارهم وقالوا : نعوذ بالله أن تذهب عقولنا الى غير ما ذهب اليسه متقدمنا ، وأرغموا عقلهم على الوقفة فيصيبه الشلل من تلك الناحية ٠ فأية حاجة له بعد ذلك الى اللغة العربية نفسها ، وقد يكفيه منها ما يفهم به أسلوب كلام المتقدم ، وهو ليس من أولئك العرب الذين كان ينظر الاولون فى كلامهم ٠

وهكذا كل متأخر يقصر فهمه على النظر فى كلام من يليه هو غير مبال بسلفه الأول ، بل ولا بما كان يحف بالقول من أحـوال الزمان ، فهو لا ينظر الا اللفظ وما يعطيه ، فتسـفل منزلتـه فى تحصيل اللغة بمقدار بعده عن أهلها حتى وصل حال الناس الى ما نراهم عليه اليوم : جعلوا دروس اللغة لفهم عبارة بعض المؤلفين فى النحو وفنون البلاغة ، وان لم يصلوا منها الى غاية فى فهم ما وراءها فدرست علوم الأولين وبادت صناعتهم ، بل فقدت كتب السلف الأولين رضى الله عنهم ، وأصبح الباحث عن كتاب المدونة لمالك رحمه الله تعالى أو كتاب الأم للشـافعى رحمه الله تعــالى أو بعض كتب الأمهات فى فقه الحنفية كطالب المصحف فى بيت الزنديق ٠ تجد جزءا من الكتاب فى قطر وجزءه الآخر فى قطر آخر ، فاذا اجتمعت لك أجزاء الكتاب وجدت ما عرض عليها من مسـخ النساخ حائلا بينك وبين الاستفادة منها ٠

هذا كله من أثر الجمود وسوء الظن بالله وتوهم أن أبواب فضل الله قد أغلقت فى وجوه المتأخرين ، ليرفع بذلك المتقدمين .

وعدم الاعتبار بما ورد فى الأخبار من أن المبلغ ربما كان أوعى من السامع وأن هذه الأمة كالمطر لا يدرى أوله خير أو آخـره وقلة الالتفات الى أن ذلك قد أضاع آثار المتقدمين أنفسهم ، ولا حول ولا قوة الا بالله · لا ريب أن القارىء يحيط بمقـدار ضرر هـذه الجناية على اللغة ، يكفيه من ذلك أنه اذا تكلم بلغته لغة دينـه وكتابه وقومه لا يجد من يفهم ما يقول ، وأى ضر أعظم من عجز القائل عن أن يصل بمعناه الى العقول ؟

جناية الجمود على النظام والاجتماع

وأعظم من هذه الجناية جناية التفريق وتمزيق نظـام الأمة وايقاعها فيما وقع فيه من سبقها من الاختلاف وتفريق المذاهب والشيع فى الدين · كان اختلاف السلف فى الفتيا يرجع الى اختلاف افهام الأفراد ، وكل يرجع الى أصل واحد لا يختلفون فيه ، وهو كتاب الله وما صح من السنة ، فلا مذهب ولا شيعة ، ولا عصبية تقاوم عصبية ، ولو عرف بعضهم صحة ما يقول الآخر لاسرع الى موافقته كما صرح به جميعهم ، ثم جاء أنصار الجمـــود فقالوا يولد مولود فى بيت رجل من مذهب امام فلا يجوز له أن ينقل من مذهب أبيه الى مذهب امام آخر · واذا سألتهم قالوا : « وكلهم من رسول الله ملتمس » لكنه قول باللسان ، لا أصل له فى الجنان ، ثم كان حروب جدال بين أئمة كل مذهب لو صرفت آلاتها وقواها فى تبيين أصول الدين ونشر آدابه وعقائده الصحيحة بين العامة ، لكنا اليوم فى شأن غير ما نحن فيه ، يجد المطلع على كتب المتخلفين من مطاعن بعضهم فى بعض ما لا يسمح به أصل من أصول الدين الذى ينتسبون اليه · يضلل بعضهم بعضا ، ويرمى بعضهم بعضا بالبعد عن الدين ، وما المطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن · ولكنه الجمود ، قد يؤدى الى الجحود ·

كان الاختلاف فى العقائد على نحو الاختلاف فى الفتيا تخالف أشخاص فى النظر والرأى ، وكان كل فريق يأخذ عن الآخر ولا يبالى بمخالفته له فى رأيه ، مسجدهم واحد وامامهم واحد وخطيبهم واحد فلما جاء دور الجمود ـ دور السياسة ـ أخذ المتخلفون فى التنطع وأخذت الصلات تتقطع وامتازت فرق وتألفت شيع كل ذلك على خلاف ما يدعو اليه الدين ، وقد بذل قوم وسعهم فى تمييز الفرق تمييزا حقيقيا فما استطاعوا وانما هو تمييز وهمى ، وخلف فى أكثر المسائل لفظى • وانما هى الشهوات وضروب السياسات • أشعلت نيران الحرب بين المنتسبين الى تلك الشيع حتى آل الأمر الى هذه الفرقة التى يظن الناظر فيها أنها لا دواء لها •

قال قائل(١) من عدة سنين : أنه ينبغى أن يعين القضاة فى مصر من أهل المذاهب الأربعة لأن أصول هذه المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها وقال ان الضرورة قاضية بأن يؤخذ فى الأحكام ببعض أقوال من مذهب مالك أو مذهب الشافعى تيسيرا على الناس ودفعا للضرر والفساد: فقام كثير من المتورعين ، يحوقلون ويندبون حظ الدين ، كأن الطالب يطلب شيئا ليس من الدين ، مع أنه لم يطلب الا الدين ، ولم يأت الا بما يوافق الدين ، وبما كان عليه العمل فى أقطار العالم الى ما قبل عدة سنين ، فأين قول هؤلاء « وكلهم من رسول الله ملتمس » ؟ لكن هو جمود المتأخر على رأى من سبقه مباشرة وقصر نظره عليه دون التطلع الى ما وراءه • أو هى السياسة تحل ما تشاء وتحرم ما تشاء ، وتصحح ما تشاء ، وتعطل ما يشاء ، والناس منقادون اليها بأزمة القوة أو الاهواء •

---

(١) القائل هو الامام الكاتب وله فيه اقتراح رسمى فى تقريره الذى وضعه لاصلاح المحاكم الشرعية •

جناية الجمود على الشريعة وأهلها

هذا الجمود فى أحكام الشريعة جر الى عسر حمل الناس على اعمالها : كانت الشريعة الاسلامية أيام كان الاسلام اسلاما سمحة تسع العالم بأسره ، وهى اليوم تضيق عن أهلها ، حتى يضطروا الى أن يتناولوا غيرها وأن يلتمسوا حماية حقوقهم فيما لا يرتقى اليها ، وأصبح الاتقياء من حملتها يتخاصمون الى سواها ٠

صعب تناول الشريعة على الناس حتى رضوا بجهلها عجزا عن الوصول الى عملها ، فلا ترى العارف بها من الناس الا قليلا لا يعد شيئا اذا نسب الى من لا يعرفها ٠ وهل يتصور من جاهل بشريعة أن يعمل بأحكامها ؟ فوقع أغلب العامة فى مخالفة شريعتهم بل سقط احترامها من أنفسهم لأنهم لا يستطيعون أن يطبقوا اعمالهم بمقتضى نصوصها ٠ وأول مانع لهم ضيق الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات وكثرة الاختلاف ٠

سألت يوما أحد المدرسين فى بعض المذاهب : هل تبيع وتشترى وتصرف النقود على مقتضى ما تجد فى كتب مذهبك فأجاب أن تلك الأحكام قلما تخطر بباله عند المعاملة بالفعل وانما يفعل ما يفعل الناس ٠ هكذا فعل الجمود بأهله ، ولو أرادوا أن تكون للشريعة حياة يحيا بها الناس لفعلوا ، ولسهل عليهم وعلى الناس أن يكونوا بها أحياء ٠

تعلم ما وصل اليه الناس من فساد الأخلاق والانحراف عن حدود الشريعة لو سألت عن سببه فى القرى وصغار المدن لوجدته أحد أمرين : اما فقد العارف بالشريعة والدين وسقوط القرية أو المدينة فى جاهلية جهلاء يرجع بعض أهلها الى بعض فى معرفة

الحلال والحرام وليس المسئول بأعلم من السائل وكلهم جاهلون ، وأما عجز العارف عن تفهيم من يسأله ، لاعتقال لسانه عن حسن التعبير بطريقة تفهمها العامة ، فهو اذا سئل يقرأ كتـابا أو يسرد عبارة يصعب على السامع فهمها وعلى المتكلم افهامها • وذلك للحرج الذى وضع فيه نفسه ، فلا يستطيع التصرف فيما يسمع ولا فيما يعلم • فاذا قلت للعارف : تعلم من وسائل التعبير ما يقدرك على مخاطبة الطبقات المختلفة من الناس حتى تنفع بعلمك ، وأعل بنفسك الى أن تفهم الغرض من قول أمامك فتجد لا صلة انطباقا على هذه الحادثة مثلا وان لم يأت ذكرها بنفسها فى قوله أو قول من جاء بعده من اتباعه ، ـ قال : سبحان الله : هل فعل ذلك أحد من المشايخ ؟ يريد ألا ياتى شيئا الا ما أتى به شيخه الذى أخذ عنه يدا بيد ، ولو أبعد بنظره لوجد قدماء المشايخ قد فعلوه وبالغوا فيه حتى خالفوا من أخذوا عنه فى بعض رأيه ثم اذا حاججته فى ذلك لم يبعد من رأيه أن يعدك زنديقا ، وانك تدعوه الى الخروج من دينه ، ولا يدرى المسكين انه بذلك يخالف نصوص دينه ، وأنه يتهيأ للخروج منه ، نعوذ بالله تعالى •

كان كلام بينى وبين أحد المدرسين فى أخذ الطلبة بالنصيحة وتذكيرهم بفضائل الاخلاق وصالح الأعمال ، خصوصا عند القاء الدروس الفقهية ودروس الحديث والتوحيد ، فقال لى : انه لا فائدة فى ذلك قطعا ، وهو تعسب فى غير طائل • فقلت له : ذلك حق عليك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وليس عليك أن يأتمـر المأمور ولا أن ينتهى المنهى • فقال : اذا تحققت استحالة المنفعة كان الأمر والنهى لغوا •

فانظر كيف أعتقد استحالة الانتفاع بنصحه لبـلوغ الفساد من النفوس غايته كما يزعم ؟ ولم ينظر فى الوسيلة الى اقتلاع هذا الفساد ، مع أن الدين يدعوه الى ذلك وهو يهمل كل يوم عمله لتعليم

من لا سبيل الى اصلاحه ، هذا كله لأنه لم ير نفسه أهل لأن يتخذ وسيلة لم يتخذها من اخذ عنه ، أو لم يرشده اليها من تعلم هو بين يديه ولم يتذكر عند ذلك شيئا من الأوامر الالهية ، وان اليأس من روح الله انما يكون من القوم الكافرين أو الضالين ·

لا بل اذا قلت له : ان هذا الضرب من ضروب التعليم عقيم لا ينتج المطلوب منه ، أو أن هذا الكتاب الذى تعود الطلاب قراءاته قد يضر بقارئيه وغيره افضل منه ·· كان يظن أن قولك هذا مخالف للدين ، ورأى العدول عما تعوده نوعا من الاخلال بالدين ، وقد يقيم عليك حربا يعتقد نفسه فيها مجاهدا في سبيل الله ·

اذا قلت له : أن دروس السلف كانت تقريرا للمسائل واملاء للحقائق على الطلاب ، ولم يكن لاحد منهم كتاب يأخذه بيده ويقرئه تلاميذه ، ولم يكن بايدى الطلبة الا الاقلام والقراطيس يكتبون ما يسمعونه من أفواه اساتذتهم · قد يعترف لك بصحة ما تقول ولكنه يستمر فى عمله ، اعتمادا على أنه وجد الناس هكذا يعملون ، فهل يخطر ببال عاقل أن هذا الجمود من الدين ؟ وهل يرتاب من له أدنى ادراك فى سوء عقباه على الدين وأهل الدين ؟

جناية الجمود على العقيدة

ذلك جمودهم فى العمل ، وأشد ضررا منه الجمود فى العقيدة: نسوا ما جاء فى الكتاب وأيدته السنة من أن الايمان يعتمد اليقين ، ولا يجوز الأخذ فيه بالظن ، وان العقل هو ينبوع اليقين فى الايمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة ، وأن النقل ينبوع له فيما

بعد ذلك(١) من علم الغيب كأحوال الآخرة وفرض العبادات وهيآتها ، وان العقل أن لم يستقل وحده في ادراك مالا بد فيه من النقل فهو مستقل لا محالة في الاعتقاد بوجود الله وبأنه يجوز أن يرسل الرسل فتأتينا عنه بالمنقول – نسوا ذلك كله وقالوا : لابد من مذهب خاص في العقيدة ، وافترقوا فرقا وتمزقوا شيعا كما قلنا ولم يكفهم الالزام باتباع مذهب خاص في نفس المعتقد ، بل ذهب بعضهم الى أنه لابد من الأخذ بدلائل خاصة للوصول الى ذلك المعتقد فيكون التقليد في الدليل كالتقليد في المدلول ، وكأنهم لذلك جعلوا النقل عمادا لكل اعتقاد وباليته النقل عن المعصوم ، بل النقل ولو عن غير المعروف ، فتقررت لديهم قاعدة : ان عقيدة كذا صحيحة ، لأن كتاب كذا للمصنف فلان يقول ذلك ، ولما كانت الكتب قد تختلف أقوالها صار من الصعب أن يجد الواحد منهم لنفسه عقيدة قارة صافية غير كدرة ولا متزعزعة · وقد سرى ذلك من قراء المقلدين الى أمييهم فتراهم يعتقدون كل ما يقال وينقل عن معروف الاسم ، وأن لم يكن في حق الأمر من أهل العلم ، وتتناقض عقائدهم على حسب تناقض مسموعاتهم ·

انجر التساهل في الاعتماد على النقل الى الخروج عما اختطه لنا السلف رضي الله عنهم ، فقد كانوا ينقبون عن صفات من ينقلون عنه ، ويمتحنون قوله ، حتى يكونوا على شبه اليقين من أنه موضع الثقة · ولكن جمود المتأخر على ما يصل اليه من المتقدم

---

(١) يعني ان الاخذ بما جاء به الرسل متوقف بالفعل – وفقا لنظر العقل على التصديق بأن الله أرسلهم ، فهو لا يكون الا بعده · وهذا قطعي بالنسبة الى من يدعى الى الدين من الكفار والى اقامة الحجة على المنكر ، وأما الناشيء في الاسلام فلا ترتيب عنده في ذلك فهو يأخذ العلم بالله وصفاته وأدلتها النقلية من القرآن مباشرة ·

صير النقل فوضى ، فتجد كل شخص يأخذ عمن عرفه وظن أنه أهل للأخذ عنه بدون بحث ولا تنقيب ، حتى شاع بين الناس من الأقوال وموضوعات الأحاديث ، ما ترتفع الأصوات بالشكاية منه من حين الى حين • وكل ما تراه من البدع المتجددة فمنشؤه سوء الاعتقاد الذى نشأ من رداءة التقليد ، والجمود عند حد ما قال الأول بدون بحث فى دليله ولا تحقيق فى معرفة حاله ، واهمال العقل فى العقائد على خلاف ما يدعو اليه الكتاب المبين والسنة الطاهرة • دخلت على الناس لذلك عقائد يحتاج صاحب الغيرة على الدين فى اقتلاعها من أنفسهم الى عناء طويل ، وجهاد شديد ، وسلاحه الكتاب وسلاح أعدائه أقوال بعض من تقدم من يعرف ومن لا يعرف ــ وما أكثر عدد من ينصر اعداءه اليوم وما أقلهم غدا ان شاء الله •

سأل سائل الأستاذ شيخ الجامع الأزهر عن حكم عمل من الأعمال الجارية فى المساجد يوم الجمعة ــ ومنزلة الشيخ من الرياسة فى أهل العلم بالدين منزلته ــ فأفتى بما ينطبق على السنة وما يعرفه العارفون بالدين وقال : ان العمل بدعة من البدع يجب التنزه عنها • أتظن أن المستفتى أمكنه العمل بمقتضى الفتيا ؟ كلا • حدث قيل وقال، وكثرة تسآل ، ودخلت السياسة ثم قيل: ان الزمان ناصر الحقيقة ، وقد وجدنا الأمر كذلك من قبلنا • وسكت السائل وماذا يصنع المجيب ؟

نعم هذا من شؤم ذلك الجمود فقد فصل بين العامة ومن يرجى فيهم تقويم ما اعوج منها ووكلت الى اناس منها لا علم لهم بالدين ولا بالأدب وقد غرسوا فى أذهان الدهماء شر الغرس ، ولا تجنى الأمم منه الا اخبث الثمر • فلو قام العالم بالدين وأراد أن يبين حكم الله المصرح به فى كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم

المجمع عليه عند السلف قاطبة انتصب له ناعر من العامة يصيح في وجهة (ما سمعنا بهـذا فى آبائنا الأولين) ويريد من آبائه الأولين من رآهم بعد ولادته أو ذكرت له أسماؤهم بلسان مضليه حتى صار ارشاد العامة اليوم من أصعب الأمور وأشـقها على طالبـه ٠

ماذا يمكن أن أقول ؟ أصبح الرجل يرتكب فى وسائل العبادة أقبح المنكرات فى الدين وإذا دعى الى ترك المنكر نفر وزمجـر وأبى واستكبر ٠ أنظر ماذا يصنع الموسوسـون ومن يقـرب منهم فى الاستبراء من البول على مرآى من المارة وفيهم النسـاء والأطفال وهم يظنون أنهم يتقربون الى الله بما يفعلون ٠

هذا هو شأن العامة يرون ما ليس بدين دينا ، ويصعب على حفاظ الدين ارشادهم يفضل جمودهم على ما ورثوا من ملقنيهم بدون تعقل ٠

فهذا معظم الأمة تراه قد تملص من ايدى منذريه ٠ ولو شاءوا لاقصل كل منهم على صاحبه ، وهو أيسر شيء على حملة الشريعة ، وما هو الا ان يرجعوا الى ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من سعة الدين وسماحته ، ثم العمل على حفظه وحياته٠

الجمود ومتعلموا المدارس النظامية

ثم أن الجمود قد أحدث لنا فريقا آخر وهو فريق المتعلمين على الطرق الجديدة أما فى مدارس الحكومة الاسلامية واما فى المدارس الأجنبية داخل بلادهم او خارجا عنها ٠ لا أتكلم عن هذا الفريق فى بلاد القرم أو القوقاز أو سمرقند أو بخارى أو الهند ، فانى لا أعرف كثيرا من أحوالهم ومن رأيته منهم رأيت فيه خيرا

وارجوا أن يكون منهم لقومهم ما ينتظره الاسلام من العارفين به ، فقد رأيت أفرادا قليلين من هؤلاء تعلموا في البلاد الأوربية ودرسوا العلوم فيها درسا دقيقا ، وهم أشد تمسكا بلب الدين الاسلامي وروحه من كثير ممن يدعون الورع والتقوى ولا يسمحون لأنفسهم بترك عادة صحيحة من العادات التي أورثها دينهم قومهم ، فنعم المتعلمون هؤلاء ، اكثر الله منهم .

وانما أتكلم عن هذا الفريق من المتعلمين في مصر وسورية وسائر بلاد الدولة العثمانية . سماحة الاسلام وسعة حمله للعلم اباحتا للمسلمين أن يرسلوا أولادهم ليأخذوا العلم في المدارس الرسمية وغير الرسمية عن أساتذة فيهم المسلم وغير المسلم ، أو أساتذة كلهم غير مسلمين ، بل في مدارس لم تبن الا لترويج دين غير الدين الاسلامي واباحتا لغير اباء هؤلاء التلاميذ أن يسكتوا والا ينكروا عليهم عملهم ، ما دامت العقيدة سالمة من الهدم أو الضعضعة .

جمود تلاميذ المدارس الاجنبية

هؤلاء التلاميذ أن كانوا في مدارس أجنبية لا أثر لتعليم الدين الاسلامي فيها ، بل ربما يعلم فيها دين آخر فقد يسري الى عقائدهم شيء من الضعف ، وقد تذهب عقائدهم بالمرة وتحتل مكانهم عقائد أخرى تناقضها ، كما شوهد ذلك مرارا . ولو كان اباؤهم على علم بطرق الاستدلال الاقناعية لعقائد دينهم لدعموا من عقائد أبنائهم وحفظوها من التزلزل أو الزوال ، وكيف يكون لاولئك الآباء شيء من هذا العلم مع الجمود على طرق قديمة لا يصل الى فهمها من ينقطع لتعليمها ، فضلا عن أولئك المساكين ، بل لو كان هناك مرشدون على طريقة يسهل فهمها لتيسر لهؤلاء التلاميذ أن يهتدوا بهديهم ولكن الجمود صير كل شيء صعبا وكل أمر غير مستطاع .

فهذه جناية من جنايات الجمود على أبناء المسلمين الذين يتعلمون فى مدارس أجنبية ، يخرجهم من دينهم من حيث لا يشعرون · وياليتهم يستبدلون بالدين رادعا آخر من الأدب والحكمة كما يرجوا بعض المغرورين الذين لا يعلمون طبائع هذه الأمم ، أو كما يروجه بعض من لا يريدون الخير بها ، ولكنه ترك أفئدتهم خواء خالية من كل زاجر أو دافع ، اللهم الا زاجرا عن خير أو دافعا الى شر ، فاتخذوا الهمم هواهم وأمامهم شهوتهم · فهلكوا وأهلكوا ، ومن هؤلاء ورثة الأغنياء الذين تصبح من شرور أعمالهم الجرائد كل يوم ، فالجهل خير مما يتعلم هؤلاء بدون ريبة ، وليت الاسلام لم يرحب صدره لمثل هذا الضرب من التعليم والتعلم ·

جمود تلاميذ المدارس الرسمية والأهلية

أما المتعلمون فى مدارس رسمية أو غير رسمية للتعليم الدينى فيها شيء من البقية فهؤلاء ينشئون على شيء من المعارف فى الفنون المختلفه ، وتقرر لهم حقائق فى الكون السماوى أو الأرضى أو فى الاجتماع الانسانى ، ومن عرف شيئا انطلق لسانه بالخوض فيه ، وقد يسمعه متنطع ممن يلبس لباس أهل الدين وهو جامد على الفاظ سمعها ، فلو سمع شيئا غيرها أنكره وظنه مخالفا للعقيدة الصحيحة فيأخذ يلوم المتعلم ويوبخه ، ويرميه بالمروق من الدين ، هذا والمتعلم لا يشك فى قوة دليله ، ولجهله بالدين يعتقد أن ما يقوله خصمه منه ، فينفر من دينه نفرته من الجهل ، ولو قال له قائل : ارجع الى كتب الدين تجد فيها ما يسرك وينصرك على نفسك وخصمك ، حار لا يدرى الى أى كتاب يرجع ، ولم يسهل عليه فهم تلك العبارات التى ورثها القوم على ما فيها من تشعيب وتعقيد وأبقوها كما ورثوها ، فيعود الى النفور من الدين نفور طالب الفهم مما لا يمكنه فهمه ·

لهذا يعتقـد أكثر هؤلاء أن الدين شيء غير مفهوم ، بل قد يعده بعضهم خـرافة « نعوذ بالله » فيأخذون عنه جانبا ، ويتركون عقائده ومضائله وادابه ، ويلتمسون لهم ادابا غيره ، وقلما يجدونها، فتراهم وقد فترت قلوبهم وقصرت هممهم ، فلا يطلبون الا ما تطلبه العامة من كسب معيشة أو علو جاه « مادام الشرف محفوظا » فاذا وجد بينهم من يدعي الوطنية أو الغيرة الملية أو نحو ذلك ، فانما ينثر الألفاظ نثرا لا يرجع فيها الى أصل ثابت ، ولا الى علم صحيح · ولهذا يطلب لبلاده من الوجه الذى يؤدى الى المفسدة ، وهو يشعر ـ أو لا يشعر ـ على حسب حاله · ومنهم من يصيح باسم الدين ولا تتحرك نفسه لمعرفة حكم من أحكامه أو درس عقيدة من عقائده ، فشأنهم كلام فى كلام ، ولبئس ما يصنعون ، ولولا هذا الجمود لوجدوا فى كتب دينهم وفى أقوال حملته ما تبتهج به قلوبهم ، وتطمئن اليه نفوسهم ، ولذاقوا طعم العلم مادوما بالدين · وتمكنوا من نفع أنفسهم وقومهم ولوجدت منهم طبقـة معـــروفة ، يرجع اليها فى سير الأمة وسياسة افكارها وأعمالها الاجتماعية ·

الجمود علة تزول

تفصيل مضرات هذا الجمود وسيئاته يحتاج الى كتاب طويل فنكتفي بما أوجزناه في الصفحات السابقة • ولن يبقى الكلام في انه عارض يمكن زواله ان شاء الله تعالى •

وقد عرفت من طبيعة الدين الاسلامي بعد عرضها عليك فيما سبق أنها تسمو عن أن ينسب اليها هذا المرض الخبيث ــ مرض الجمود على الموجود ــ وكم في الكتاب من آية تنفر من اتباع الآباء مهما عظم أمرهم بدون استعمال العقل فيما كانوا عليه ، ولا حاجة الى اعادة ذلك •

ثم اننا أشرنا أيضا الى بعض الأسباب التي جلبت هذا الجمود على المسلمين لا على الاسلام ، وأن محدثها اما عدو للمسلمين طالب لخفض شأنهم أو لاستعبادهم واستغلال أيديهم لخاصة نفسه واما محب جاهل يظن خيرا ويعمل شرا • وهذا الثاني كان أشد نكاية وأعون على الغواية ، وهل تزول هذه العلة ويرجع الاسلام الى سعته الأولى وكرمه الفياض ؟ وينهض بأهله الى خير ما ذخر فيه ؟؟

جاء في الكتاب المبين (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) ذلك الذكر هو الذكر الحكيم ــ هو القرآن الذي (أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) هو كما قال (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) وعد الله بحفظ هذا الكتاب وقد أنجز وعده ،

لم تطل اليه يد عدو مقاتل ، ولا يد محب جاهل ، فبقي كما نزل ، ولا يضره عمل الفريقين في تفسيره وتأويله ، فذلك مما لا يلتصق به ، فهو لا يزال بين دفات المصاحف طاهرا نقيا بريئا من الاختلاف والاضطراب ، وهو امام المتقين ، ومستودع الدين ، واليه المرجع اذا اشتد الأمر ، وعظم الخطب ، وسئمت النفوس من التخبط في الضلالات ، ولا يزال لاشعة نوره نفوذ من تلك الحجب التي اقاموها دونه ولابد أن تتمزق كلها بأيدي انصاره • فيتبلج ضياؤه لأعين أوليائه • ان شاء الله تعالى •

هذا الضياء كان ولا يزال يلوح لامعه في حنادس الظلم لأفراد اختصهم الله بسلامة البصيرة فيهتدون به اليه ويحمدون سراهم ، بما عرفوا من نجاح مسعاهم ، ولكن الذين أطبقت عليهم ظلم البدع وران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب للشيع ، وطمست بصائرهم وفسدت عقولهم بما حشوها من الأباطيل ، وبما عطلوها عن النظر في الدليل ، هؤلاء في عمى عن نوره ، وقلوبهم في اكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقر ، يصيحون بانهم عمي صم ، فلا يرون له سناء ، ولا يسمعون له نداء ، ويعدون ذلك من كمال الايمان به ، ولبئس ما رضوا لأنفسهم من السفه وطيش الحلم وهم يعلمون•

هذا حال الجمهور الأعظم ممن يوصفون بانهم مسلمون ، ويجلبون العار على الاسلام بدخولهم تحت عنوانه ، ويقرون حجج أعدائه في حربه ، بزعمهم الاجتماع تحت لوائه ، وما هم منه في شيء كما قدمنا •

هؤلاء لابد أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم ، فقد اتبعوا سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، وضيقوا على أنفسهم بدخولهم في جحر الضب الذي دخلوه (١) ومن اتبع سنن قوم استحق

---

(١) في الكلام اشارة الى حديث « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا ضب لدخلتموه » رواه الشيخان وغيرهما •

الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم ، فلن يخلص مما قضى الله فى عذابهم • فقد قص عليهم سير الأولين ، وبين لهم ما أنزل بهم عندما انحرفوا عن سننه ، وحادوا عن شرعه ، ونبذوا كتابه وراءهم ظهريا ـ أحل بهم الذل ، وضرب عليهم المسكنة ، وأورث غيرهم أرضهم وديارهم ، فهل ينتظر المتبعون سننهم ، والسائرون على اثرهم ، أن يصنع الله بهم غير الذى صنع بسابقيهم ؟ وقد قضى بأن تلك سنته ولن تجد لسنته تبديلا ؟

لاتزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين الى الاسلام ولاتزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا (وقد بدءوا يفيقون من سكرتهم) ويفزعوا الى طلب النجاة ، ويغسلوا قذى المحدثات عن بصائرهم ، وعند ذلك يجدون هذا الكتاب الكريم فى انتظارهم ، يعد لهم وسائل الخلاص ، ويؤيدهم فى سبيله بروح القدس ، ويسير بهم الى منابع العلم ، فيغترفون منها ما يشاءون ، فيعرفون أنفسهم ويشهدون ما كمن فيها من قوة ، فيأخذ بعضهم بيد بعض ، ويسيرون الى المجد غير ناكلين ولا مخذولين •

ولهذا أقول : أن الاسلام لن يقف عثرة فى سبيل المدنية أبدا ، لكنه سيهذبها وينقيها من أوضارها ، وستكون المدنيـة من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهله • وهذا الجمود سيزول ، وأقوى دليل لك على زواله ، بقاء الكتاب شاهدا عليه بسوء حاله ، ولطف الله بتقييض اناس للكتـاب ينصرونه ، ويدعون اليه ويؤيدونه ، والحوادث تساعدهم ، وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم •

هذا الكتاب المجيد الذى يتبعه المسلم حيثما سار شرقا وغربا لابد أن يعود نوره الى الظهور ، ويمزق حجب هذه الضـلالات ، ويرجع الى موطنه الأول فى قلوب المسلمين ويأوى اليهـا ـ المسلم يتبعه وهو خليله الذى لا يأنس الا اليه ، ولا يعتمد الا عليه •

يقول أولئك الجامدون الخامدون — كما يقول بعض أعداء القرآن   ان الزمان قد اقبل على آخره ، وأن الساعة أوشكت أن تقوم ، وان ما وقع فيه الناس من الفساد ، وما منى به الدين من الكساد ، وما عرض عليه من العلل ، وما نراه فيه من الخلل ، انما هو أعراض الشيخوخة والهرم ، فلا فائدة في السعى ، ولا ثمرة للعمل ، فلا حركة الا الى العدم ولا يصح أن يمتد بصرنا الا الى العدم ، ولا أن ننتظر من غاية لأعمالنا سوى العدم (نعوذ بالله) ٠

هؤلاء حفدة الجهل ، وأعوان اليأس ، يهرفون بما لا يعرفون ٠ ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا أنه كاد ينقطع عند نهايته ؟ ان الذى مضى بيننا وبين مبدأ الاسلام (أى الهجرة) الف وثلاثمئة وعشرون عاما ، وانما هى يوم وبعض يوم أو بعض يوم فقط من ايام الله تعالى ٠ وأن آيات الله فى الكون — وان كانت تدل على أن مامضى على الخليقة يقدر بالدهور الدهارير — تشهد بأن ما بقى لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره كل تقدير (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) ٠

ان ما بيننا وبين مبدأ الاسلام
رجلا كل رجل يعيش خمسين سنة ف
بالنسبة الى دين عام كدين الاسلام ؟ ان زمنا كهذا لا يكفى — وق تبين انه لم يكف — لاهتداء الناس كافة بهديه ٠ ولم تقوم القيام على الدين ولم تقم على شرههم وطمعهم ؟

قد وعد الله بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله ، فسار فى سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعواما ، ثم انحرف به أهله عن سبيله ، وساروا به الى ما يرون ونرى ، ولن ينقضى العالم حتى يتم ذلك الوعد ، ويأخذ الدين بيد العلم ، ويتعاونا معا على تقديم العقل والوجدان ، فيدرك العقل مبلغ قوته ، ويعرف

حدود سلطته فيتصرف فيما آتاه الله تصرف الراشدين ، ويكشف ما مكنه فيه من أسرار العالمين ، حتى اذا غشيته سبحات الجلال وقف خاشعا ، وقفل راجعا ، وأخذ أخذ الراسخين فى العلم ، الذين قال فيهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) فيما روى عنه : « هم الذين أغناهم عن اقتحام السدود المضروبة دون الغيوب ، الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخا » واعتبر بعد ذلك بقوله : « فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك ، فتكون من الهالكين ، هو القادر الذى اذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته ، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسواس أن يقع عليه فى عميقات غيوب ملكوته ، وتولهت القلوب اليه لتجرى فى كيفية صفاته وغمضت مداخل العقول فى حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ، ردعها وهى تجوب مهاوى سدف(١) الغيوب متخلصة اليه سبحانه فرجعت اذا جبهت(٢) معترفة بانه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته ، ولا تخطر ببال أولى الروايات خاطرة من تقدير جلال عزته »(٣)

هنالك يلتقى (أى العقل) مع الوجدان الصادق (القلب) ولم يكن الوجدان ليدابر العقل فى سيره داخل حدود مملكته ، متى كان الوجدان سليما ، وكان ما استضاء به من نبراس الدين صحيحا ، اياك أن تعتقد ما يعتقده بعض السذج من أن فرقا بين العقل والوجدان (القلب) فى الوجهة ، بمقتضى الفطرة والغريزة ،

---

(١) السدف جمع سدفة كظلمة لفظا ومعنى .

(٢) جبهة ضرب جبهته ورده .

(٣) هذا الكلام فيه من الصنعة وسمات التوليد ما يدل على انه موضوع على (على كرم الله وجهه) .

فانما يقع التخالف بينهما عرضا عند عروض العلل والأمراض الروحية على النفوس وقد أجمع العقلاء على أن المشاهدات بالحس الباطن (الوجدان أو القلب) من مبادىء البرهان العقلي ، كوجدانك انك موجود ، ووجدانك لسرورك وحزنك وغضبك ولذتك وألمك ونحو ذلك ٠

منحنا العقل للنظر في الغايات ، والأسباب والمسببات ، والفرق بين البسائط والمركبات — والوجدان لادراك ما يحدث في النفس والذات من لذائذ وآلام ، وهلع واطمئنان ، وشماس واذعان ونحو ذلك مما يذوقه الانسان ، ولا يحصيه البيان ، فهما عينان للنفس تنظر بهما ، عين على القريب : وأخرى تمتد الى البعيد ، وهي في حاجة الى كل منهما ولا تنتفع باحداهما حتى يتم لها الانتفاع بالأخرى ، فالعلم ، الصحيح مقوم الوجدان ، والوجدان السليم من أشد أعوان العلم ٠ والدين الكامل علم وذوق ، وعقل وقلب ، برهان واذعان ، فكر ووجدان ٠ فاذا اقتصر دين على أحد الأمرين فقد سقطت احدى قائمتيه ، هيهات أن يقوم على الأخرى ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الانسان الواحد انسانين ، والوجود الفرد وجودين ٠

قد يدرك عقلك الضرر في عمل ولكنك تعمله طوعا لوجدانك ، وربما أيقنت المنفعة في أمر وأعرضت عنه اجابة لدافع من سريرتك ، فتقول ان هذا يدل على تخالف العقل والوجدان ، ولكني أقول : ان هذه حجة من لا يعرف نفسه ولا غيره ، عليك أن ترجع الى نفسك فتتحقق من أحد الأمرين — أما أن يقينك ليس بيقين ، وأنه صورة عرضت عليك من قول غيرك ، فانت تظنها علما وما هي به ، واما أن وجدانك وهم تمكن فيك ، وعادة رسخت في مكان القوة منك ، وليس بالوجدان الصحيح ، وانما هو عادة ورثتها عمن حولك وظننتها شعورا منبعه الغريزة وما هي منه في شيء ٠

لابد ان ينتهى أمر العالم الى تآخى العلم والدين ، على سنة القرآن والذكر الحكيم ، ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذى صح معناه « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله » ، وعندئذ ذلك يكون الله قد أتم نوره ولو كره الكافرون وتبعهم الجـامدون القانطون ، وليس بينك وبين ما أعدك به الا الزمان الذى لابد منه فى تنبيه الغافل وتعليم الجاهل ، وتوضـيح المنهـج ، وتقويم الأعوج ، وهو ما تقتضيه السنة الالهية فى التدريج (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا * انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا * ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم) وهـو خير الناصرين ٠

الاســـلام
ومدنيــة أوربا

تمهيـــد

لم يبق علينا من الكلام الا ما يتعلق بالأمر الرابع مما ذكرته الجامعة (١) وهو « أن تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحي في أوروبا وعدم تمكنهما من التغلب على الاضطهاد الاسلامي دليل واقعي على أن النصرانية كانت أكثر تسامحا مع الفلسفة » ·

ليس من السهل على أن أعتقد أن أديبا كصاحب الجامعة يقول هذا القول ـ وهو ناظر الى الحقيقة بكلتا عينيه مع معرفته بلسان الغربيين واطلاعه على ما كتبوا في هذه المسألة وهي من أهم المسائل التاريخية ـ وانما هي عين الرضا تناولت من حاضر الحال ومما انتهى اليه سير التاريخ ما تناولت ، ثم أملت على قلبه ما جرى به قلمه ·

هل يصح أن تسمى الاستكانة للغالب تسامحا ؟ وهل يسمى العجز مع التطلع للنزاع عند القدرة حلما ؟ أم يسمى غل الأيدي عن الشر بوسائل القهر كرما ؟ هل تعد مساكنة جناب البابا لملك ايطاليا في مدينة واحدة واجتماع الكرسيين العظيمين : كرسي المملكة الايطالية وكرسي المملكة البابوية ـ في عاصمة واحدة تسامحا من قداسة البابا مع الملك ؟ أليس الأجدر بالمنصف أن

(١) كلام الجامعة في نقد الاسلام كان مبنيا على اربعة أمور ، تقدم الرد على ثلاثة منها ، وفي هذا المقال الرد على الرابع ·

يسمى ذلك تسامحا من الملك مع البابا ، لأنه صاحب القوة والجيش والسلطنة ، ويمكنه أن يسلب البابا تلك الثمالة التى بقيت له من من السلطة الملكية ؟ كما أن الأليق به أن يسمى تلك الحالة التى عليها أهل أوربا اليوم من طمأنينة العلم بينهم بجانب الدين ـ تساهلا من العلم مع الدين ، لا تسامحا من الدين مع العلم ، بعدما كان بينهما من الحوادث ما كان ، وبعد غلبة العلم واستيلائه على عرش السلطان فى جميع الممالك ورضاء الدين بأن يكون تابعا له فى أغلبهـــا ٠

اقتبـــاس أوربا من مدنية الاسلام

السبب الأول : الجمعيات

كان جلاد بين العلم والدين فى أوربا وتألفت لنصرة العــلم جمعيات وأحزاب ، منها ما اتخذ السر حجابا له حتى يقوى ٠ ومنها ما ابتدأ بالمجاهرة ٠ وكان الدين يظفــر بالعـلم كمـا سبق بيانه ، لكثرة أعوانه وضعف أعوان العــلم ، حتى أشرقت الآداب المحمدية على تلك البلاد من سماء الأندلس ، وتبــع اشراق تلك الآداب واشتغال الناس بها سطوع نور العلم العربى من الجانب الشرقى كما ذكرنا ٠ وقد وجد هذان النوران استعدادا من النفوس للاستشاءة بهما فى السبيل التى تؤدى بهما الى المدنية التى كـانا يحملانها ٠ هذا الاستعداد كسبته الأنفس بمـا ضـايقها من غـلو رؤساء الدين فى استعمال سلطانهم ، واشـتدادهم فى اسـتعباد العقل والوجدان حتى ضاق ذرع الفطرة عن الاحتمـال ، فاخـذ الشعور الانسانى يتلمس السبيل الى الخلاص ، واذا لاح له هذان النوران اتخذهما له هداية ، واستقبلهما بوجهه ٠ وكان بعد ذلك ما كان من تأثير الدين لأهل العلم واحراقهم بالنيران ، ونفيهم من الأوطان ، ومقاومة رؤســاء الدين للحـكومات ولأهـل الأفـكار

المستقلة ، فى ادنى الأشياء واعلاها ، حتى انه عندما شرع ملوك فرنسا فى فرش باريس بالبلاط على الاسلوب الذى وجدوه فى مدينة قرطبة ، وصدر الأمر بمنع تربية الخنازير فى تلك الشوارع ، اغضب ذلك قسس القديس أنطوان · ونادوا بأن خنازير القديس لابد أن تمر فى الشوارع على حريتها الأولى ، وحصل لذلك شغب عظيم اضطر الحكومة أن تسمح بذلك مع صدور الأمر بأن توضع فى أعناقها أجراس · وقالوا ان الملك فيليب السمين مات بسقطة عن فرسه عندما انزعج الفرس من منظر خنزير وصلصلة الجرس فى عنقه ·

لقائل ان يقول : أن القسس فى ذلك الزمان كان يمكنهم أن يمتنعوا من وضع الاجراس فى أعناق الخنازير فرضاهم بذلك يعد تسامحا عظيما مع العلم (أو الصناعة) ·

ويسهل على أن اوافقه على أن مثل هذا الضرب من التسامح فى أجراس الخنازير كان يظهر من حين الى حين ، الا انه فيما اظن لا يكفى فى تشييد هذه المدينة التى يفتخر بها الأوربيون اليوم ونحن لا نبخسها قدرها كذلك ·

السبب الثانى : الضغط الدينى

شدة الحاجة وغلو الرؤساء كانا يوقدان الغيرة فى قلوب طلاب العلوم فلم تفتر لهم همة ، فمعظم أمرهم واكتشفوا كثيرا من الحقائق التى نفعت العامة ونبهت العقول للاخذ بما يهتدون اليه ، وصارت الحرب بينهم وبين رؤساء الدين سجالا ، الى أن ظهر دعاة الاصلاح الدينى « البروتستانت » فانضم دعاة العلم اليهم ظنا منهم أن سيكونون معهم من المجاهدين فى سبيل العلم · وكان منهم « ايراسم » الشهير ، فلما انتصر طلاب الاصلاح ودالت لهم دولة استمروا يعاقبون بالموت على الأفكار التى تخالف ظاهر

ما يعتقدون كما تقدم ، فانفصل ايراسم ومن معه من حماية الحرية واستقلال الارادة الشخصية ، وترك المصلحين يتفرقون شيعا ويقتل بعضهم بعضا ، وقال : ما كنت أظن أن دعاة الاصلاح يكونون كذلك أعداء العلم ٠

هذه الطوائف التى تفرقت عقائدها فى الاصلاح لم تنتظر الا أن تأمن من عدوها العام ، وهو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، فلما أمنتها أخذ بعضها يصول على بعض ، واشتعلت نيران الحروب بينهم ٠ قال أحد افاضل مؤرخيهم « وكلما ارتفعت طائفة منهم الى عرش القوة ، لوثت يديها بالجرائم فى العمل لافناء البقية ، حتى سئمت النفوس دوام تلك الحال ، ووجدت من توالى حوادث الانتقام وظهور مضاره فى كل طائفة أن الأفضل لكل طائفة أن تمنح الأخرى من الحرية مالا تستغنى عنه واحدة منهما ، والعلم كان يعمل عمله فى كشف الحقائق وترقية الآداب ، وكان من أقـوى المنبهات الى مضار الحروب ومفاسد العدوان على حرية الأشخاص ، من أية طائفة كانت ، من هذا نشأ ذلك الأصل العظيم : أصل التسامح والرضا بمجاورة المخالف فى الرأى : نشأ من القهر والقسوة التى كانت كل طائفة تعامل بها الأخرى » انتهى كلام المؤرخ بالمعنى ٠

السبب الثالث : الثورة

ولا حاجة بى الى ذكر ما جاءت به الثورة الفرنسية وكيف كانت قيامتها على الدين ورؤســـائه مما هو معلوم ، وانما أنبه القارىء الى الاعتبار بما تقدم من القول ، وبما يمكنه ان يقف عليه فى كتب القوم ، ليعلم ان الدين المسيحى فى أوربا لم يحتمل العلم فضلا وكرما ، وانما قويت عليه احزاب العلم فســـاموه استكانة وخضوعا ، ولو شاء الا يحتمل لم يستطع الى ذلك سبيلا ٠

السبب الرابع : ترك المسيحية

رؤساء الدين المسيحي رجال ذوو عزيمة واقدام وغيرة على دينهم ، قلما يدانيهم فيها رؤساء دين من الاديان ، وهم مع غلوهم في الدين واشتدادهم في استعمال سلطانهم على النفوس ، كانوا ولا يزالون يتخذون كل وسيلة لتأييد دينهم ، وهم اشد الناس حرصا على تقويم أركانه ودفع الشبه عنه ، ولم يزدهم العلم الجديد الا وسائل وسبلا لترويج عقائده وآدابه ، ولم تفتر همـــة في نشره وتزيينه للقلوب ، ومع ذلك كله نرى أن رجال العلم وحماة المدنية يتسللون منه ، والعامة من الشعوب في تخاذل عنه • والأمـــة الفرنسية ــ التي كانت تدعى بنت الكنيسة ــ أصبحت من اشـــد الناس عليه ، ورأت فلسفتها أن تحدد حرية أهل الدين في تعاليمهم واجتماعهم : كل ذلك ومدارس اللاهوت لا تزال عامرة ، وطلاب اللاهوت يعدّون بالألوف ، كل ذلك وكثير من الدول يرى من مزاياها حماية الدين المسيحي في اقطار الأرض •

قال أحد رؤساء البروتستانت ــ في خطبة من خطبه التي القاها في بعض البلاد الفرنسية سنة ١٩٠١ ، بعد كلام له في أن المسيحية رومانية أو بروتستانتية فقدت خاصتها الدينية كما فقدت فائدتها الاجتماعية ــ مانصه مترجما : « اذا كان الدين المسيحي ليس شيئا سوى الكثلكة المحتاجة الى الاصلاح (المذهب الروماني) أو الكثلكة التي دخلها الاصلاح بالفعل (المذهب البروتستانتي) فالقرن الموفي للعشرين (القرن الحاضر) لا يكون مسيحيا ابدا » •

وقد جاء في كلام هذا الخطيب ما يصرح بأنه يريد ان يطلب للمسيحية معنى آخر ينطبق كل الانطباق على اعتقاد المســـلمين فيها ، فان وفق للنجاح في سعيه زال الخلاف ــ ان شاء الله ــ بين الدين والعلم ، بل بين المسيحية والاسلام •

عود الى سماحة الاسلام

آخذ بيد القارىء الآن ، وأرجع به الى ما مضى من الزمان ، واقف وقفة بين يدى خلفاء بنى امية والائمة من بنى العبـــاس ووزرائهم ــ والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والائمة المجتهـــدون من حولهم ، والأدباء والمؤرخون والاطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون وسائر أهل النظر من كل قبيل مطيفون بهم ، وكل مقبل على عمله ، فاذا فرغ عامل من العمل اقبل على أخيه ووضع يده فى يده ، يصافح الفقيه المتكلم والمحدث الطبيب والمجتهد الرياضى والحكيم ، وكل يرى فى صـــاحبه عونا على ما يشتغل هو به ــ وهكذا أدخل به بيتا من بيوت العلم فاجد جميع هؤلاء سواء فى ذلك البيت يتحادثون ويتباحثون ، والامام البخارى حافظ السنة بين يدى عمران بن حطان الخارجى يأخذ عنه الحديث ، وعمرو بن عبيد رئيس المعتزلة بين يدى الحسن البصرى شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه ، وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل « لقد سالت عن رجل كان الملائكة أدبته ، وكان الانبياء ربته ، ان قـــام بامر قعد به ، وان قعد بامر قام به ، وان أمر بشىء كان الزم الناس له ، وان نهى عن شىء كان اترك الناس له ، ما رايت ظاهرا اشبه بباطن منه ، ولا باطنا أشبه بظاهر منه » ٠

بل أرفع بصرى فاجد الامام ابا حنيفة أمام الامام زيد بن على (صاحب مذهب الزيدية من الشيعة) يتعلم منه اصـــول العقائد والفقه ، ولا يجد احدهم من الآخر الا ما يجد صاحب الرأى فى حادثة ممن ينازعه فيه اجتهادا فى بيان المصلحة ، وهما من أهل بيت واحد ــ أمر به بين تلك الصفوف التى كانت تختلف وجهتها فى الطلب وغايتها واحدة وهى العلم ، وعقيدة كل واحد منهم أن فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة كما ورد فى بعض الاحاديث ٠

الخلفاء أئمة فى الدين مجتهدون وبأيديهم القوة وتحت أمرهم الجيش ، والفقهاء والمحدثون والمتكلمون ، والائمـــة المجتهدون الآخرون هم قادة أهل الدين ومن جند الخلفاء ، الدين فى قوته والعقيدة فى أوج سلطانها ، وسائر العلماء ممن ذكـــرنا بعدهم يتمتعون في أكنافهم بالخير والسعادة ورفه العيش وحرية الفكر ، لا فرق في ذلك بين من كان من دينهم ومن كان من دين آخر ، فهنالك يشير القارىء المنصف الى أولئك المسلمين ، وانصار ذلك الدين ، ويقول : ههنا يطلق اسم التسامح مع العلم فى حقيقته ، ههنـــا يوصف الدين بالكرم والحلم ، ههنا يعرف كيف يتفسق الدين مـــع المدنية عن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخذ فنون الحرية فى النظر ، ومنهم تهبط روح المسالمة بين العقل والوجدان (أو بين العقل والقلب كما يقولون) ٠

يرى القارىء انه لم يكن جلاد بين العلم والدين ٠ وانما كان بين أهل العلم وبين أهل الدين شىء من التخالف فى الآراء ، شأن الاحرار في الأفكار الذين أطلقوا من غل التقييد ، وعوفوا من علة التقليد ، ولم يكن يجرى فيما بينهم اللمز والتنابز بالالقاب ، فلا يقول أحد منهم لآخر انه زنديق أو كافر أو مبتدع ، أو ما يشبه ذلك ٠ ولا تتناول أحدا منهم يد بأذى ، الا اذا خرج عن نظام الجماعة وطلب الاخلال بأمن العامة ، فكان كالعضو المجذوم فيقطع ليذهب ضرره عن البدن كله ٠

ملازمة العلم للدين
وعدوى التعصب فى المسلمين

متى ولع المسلمون بالتكفير والتفسيق ورمى زيد بأنه مبتدع وعمرو بأنه زنديق ؟

أشرنا فيما سبق الى مبدأ هذا الرض ، ونقول الآن : ان ذلك بدأ فيهم عندما بدأ الضعف في الدين يظهر بينهم ، وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله ـ تلك الفتن التى كان يثيرها أعداء الدين فى الشرق وفى الغرب لخفض سلطانه ، وتوهين أركانه ـ وتصدر للقول فى الدين برأيه من لم تمتزج روحه بروح الدين ، وأخذ المسلمون يظنون أن من البدع فى الدين ما يحسن أحداثه لتعظيم شأنه تقليدا لن كان بين أيديهم من الأمم المسيحية وغيرها ٠ وانشئوا ينسـون ماضى الـدين ومقـالات سلفهم فيه ، ويكتفون برأى من يرونه من المتصدرين المتعالمين ، وتولى شئون المسلمين جهالهم ، وقام بارشادهم فى الاغلب ضلالهم ، فى أثناء ذلك حدث الغلو فى الدين ، واستعرت نيران العداوات بين النظار فيه ، وسهل على كل منهم لجهله بدينه أن يرمى الآخر بالمروق منه لادنى سبب ، وكلما أزدادوا جهلا بدينهم ازدادوا غلوا فيه بالباطل ودخل العلم والفكر والنظر (وهى لوازم الدين الاسلامى) فى جملة ماكرهوه ، وانقلب عندهم ما كان واجبا من الدين محظورا فيه ٠

لا أكاد أخطىء القارىء اذا زعم أن المسلم انما أستفاد اسـم زندقة وتزندق ومتزندق وزنديق من فضل ما علمه جيرانه اذ كانوا يقولون : هرتقه وتهرتق وهو هرتوقى : أو ما يماثل ذلك ـ أو زعم أن قد فشت فى المسلمين سرعة التكفير بطريق العدوى من أهل الملل المتشددة ٠ وان الذى سهل سريان العدوى بتلك السرعة الشديدة هو ضعف المزاج الدينى عند المسلمين بجهلهم بأصوله ومقوماته ، ومتى ضعف المزاج استعد لقبول المرض كما هو معلوم ٠

ان المسلمين لما كانوا علماء فى دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم ، ولما أصيبوا بمرض الجهل بدينهم انهزموا من الوجـــود وأصبحوا أكلة الآكل ، وطعمة الطاعم ، هل وقف الجهل بالمسلمين عند تكفير من يخالفهم فى مسائل الدين أو يذهب مذهب الفلاسفة

او ما يقرب من ذلك ؟ لا ، بل عدا بهم الجهل على ائمة الـدين ، وخدمة السنة والكتاب ، فقد حملت كتب الامام الغزالى الى غرناطة وبعد ما انتفع بها المسلمون ازمانا هاج الجهل بأهل تلك المدينـة وانطلقت السنة المتعالمين من البربر بتفسيقه وتضليله ، فجمعت تلك الكتب خصوصا نسخ « احياء علوم الدين » ووضعت فى الشارع العام في المدينة وأحرقت · قال قوم يعدون انفسهم مسـلمين فى ابن تيمية ـ وهو أعلم الناس بالسنة واشدهم غيرة على الدين ـ : انه ضال مضل · وجاء على اثر هؤلاء مقلدون يملئون افواههم بهذه الشتائم وعليهم اثمها واثم من يقفوهم بها الى يوم القيامة ·

اهمال آثار السلف

أهمل المسلمون دينهم ، والنظر فى اقوال سلفهم ، حتى انك لا تجد اليوم فى ايديهم كتابا من كتب ابى الحسن الأشعرى ولا ابى منصور الماتريدى ، ولا تكاد ترى مؤلفا من مؤلفات ابى بكر الباقلانى أو ابى اسحاق الاسفرايينى ، واذا بحثت عن كتب هؤلاء الائمة فى مكاتب المسلمين أعياك البحث ، ولا تكاد تجد نسخة صحيحة من كتاب ·

كتب على القرآن تفاسير كثيرة فى القرن الثالث من الهجرة وما بعده الى السادس · منها تفسير الطبرى وتفسير ابى مسـلم الاصفهانى وتفسير القرطبى وتفسير الجصاص وتفسير الغـزالى وتفسير ابى بكر بن العربى وكثير غيرها وفيها من آراء أولئك الائمة ووجوه استنباط الحكم والاحكام مالا غنى لطالب علم الدين عنه ، فهل يجد الباحث المجد نسخة من هذه الكتب الجليلة يمكن الوثوق بصحتها الا بطريق المصادفة وحسن الاتفاق ؟ وهل يليق بأمة تدعى انها على دين ، وان لها فيه سلفا ، ان تهجر آثار سلفها ، وتدع ما كتبوا طعمة للعث وفراشا للتراب ؟ هل وقع مثل ذلك من المشتغلين باللاهوت المسيحى فى زمن من الأزمان ؟

ان حالة طلبة العلوم الدينية الاسلامية اصبحت مما يرثى له في أكثر بلاد المسلمين ، فهم لا يقرءون من كتب الكلام الا مختصرات مما كتب المتأخرون • يتعلم أذكاهم منها ما تدل عليه عباراتها ، ولا يستطيع أن يتعلم البحث في أدلتها ، وتصحيح مقدماتها ، وتمييز صحيحها من باطلها ، وانما يتلقاها كأنها كتاب الله أو كلام نبيه صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ ما فيها بالتسليم • فاذا ناظره مناظر في بعض قضاياها وعجز عن تصحيحه قطع الجدال بقوله : هكذا قالوا • وان لم يكن القول متفقا عليه • بل قد يكون القول مما لم يقل به سوى صاحب الكتاب الذى اشتغل به ، وربما كان صاحب الكتاب ممن لو رآه أحد من السلف لم يرضه تلميذا يعى عنه ما يقول •

كاد ينقطع طلب العلوم الدينية في سورية والحجاز وتونس والجزائر ، وقل جدا في المغرب الاقصى ، ولم يبق الاهتمام به الا في بعض الصحارى ، وذلك اما لصعوبة طرق التعليم ، واقتضائها الزمن الطويل ـ وحاجات الناس مانعة لهم من افناء أعمارهم في عمل لايسد من حاجتهم ـ وأما لتفضيل الآباء تربية أبنائهم على الطرق الحديثة في أوربا أو في المدارس الأخرى وليس فيها من الدين شيء ، وان كان فيها شيء منه فهو مما لايعد تعليما دينيا ينظر اليه ـ وأما للفتور والخمود ، اللذين نشأ عن التقليد والجمود • وبذلك تجد المسلمين قد تولاهم الجهل بدينهم ، وأخذتهم البدع من جميع جوانبهم ، وانقطعت الصلة الحقيقية بينهم وبين سلفهم ، حتى لو عرض على الجمهور الأعظم منهم ما اتفق عليه السلف من الاحكام لأنكروه واستغربوه وعدوه بدعة في الدين • وصح فيهم ما قال عمر الخيام في بعض أشعار الفارسية مخاطبا للنبى عليه الصلاة والسلام « ان الذين جاءوا بعدك زينوا لك دينك ووضعوه وزركشوه حتى لو رأيته أنت لانكرته » •

فهذا الصنف من المسلمين ـ وهو معظمهم ـ قد أنكر دينه الحق وعاداه ، ونقم على أهله القائمين بخدمته ، وانما اصطفى

لاعتقاده بعض أفراد لم يعرف عن السلف اختصاصهم بالثقة ، ولم يسمح الدين باختصاصهم بالتقليد ، فاذا وقع من هذا الصنف ما فيه أذى للعلم وأهله ، فهل يعد ذلك واقعا من دين الاسلام — دين محمد صلى الله عليه وسلم — دين القرآن — دين السنة الثابتة — دين الخلفاء الراشدين ، ومن تبعهم من السلف الأولين ؟

متابعة العلم للاسلام ومباينته لسواه

الحق أقول — والحس يؤيدني : ما عادوا العلم ولا العلم عاداهم الا من يوم انحرافهم عن دينهم ، وأخذهم في الصد عن علمه ، فكلما بعد عنهم علم الدين بعد عنهم علم الدنيا وحرموا ثمار العقل • وكانوا كلما توسعوا في العلوم الدينية ، توسعوا في العلوم الكونية ، وضربوا الزمان بسوط من العزة ، وأما العلم وتجهمهم واكفهر وجهه للقائهم ، وكلما بعدوا من الدين سالمهم العلم وبش في وجوههم • ولذلك يصرحون بأن العلم من ثمار العقل ، والعقل لا يصح أن يكون له في الدين عمل ، ولا أن يظهر منه فيه أثر ، والدين من وجدانات القلب ، ولا علاقة بين ما يجد القلب وما يكسب العقل • فالفصل تام بين العقل والدين ، ولا سبيل الى الجمع بينهما : سامحهم الله فيما يسمونه تسامحا مع العلم ، وهم يصرحون بانه عدوه الذي يستحيل أن يكون بينه وبينه سلم •

هل عرفت السبب في اضطهاد المسلمين للعلم ؟ أقول « اضطهاد » ولا أريد به ما كان عند الامم المسيحية من الاشتداد في ابادة أهله والتنكيل بهم ، واختراع ضروب التعذيب ، والتفنن في صنع آلات الهلاك ، مع الأخذ بالشبهة ، والاكتفاء في الاعدام بمجرد التهمة ، فان ذلك لم يقع عند المسلمين لا أيام علمهم ، ولا في أزمنة جهلهم ، ولكن أريد من الاضطهاد الاعراض عن العلم ، ورمي الألفاظ السخيفة في وجوه أهله ، وقذفهم بشيء من الشتائم مع الابتعاد عنهم •

لا ريب انك قد أيقنت بأن السبب فى هذا الذى يسميه الأديب اضطهادا ـ انما هو جهلهم بدينهم • فالدواء الذى ينجح فى شفائهم من هذا الداء لا يكون الا ردهم الى العلم بدينهم ، والتبصر فيه ، للوقوف على أسراره والوصول الى حقيقة ما يدعو اليه ، كان الدين واسطة التعارف بينهم وبين العلم ، فلما ذهبت الواسـطة تناكرت النفوس وتبدل الانس وحشة •

الدعاة فى الاســـلام

فهل قام بينهم دعاة للعلم حقيقيون ، أو دعاة لاصـل الـدين عارفون ، ثم استعصت قلوب المسلمين عليهم ، وجمحت نفوسـهم عن الانقياد لهم ؟ وهل كثر أولئك الدعاة فى أطراف بلاد المسلمين كثرتهم فى أوربا من أواسط القرن السابع عشر من التاريخ المسيحى الى أن ظهرت قوة العلم فى أوائل القرن السابع عشر وفيما بعـد ذلك ؟ لا • انما رأينا من الصادقين أفرادا يظهرون متفرقين فى عصور مختلفة ، ربما لا يجتمع أربعة منهم ـ فما يزيد ـ فى قرن واحد ، ويأخذون فى العمل لما وجهوا اليه ، ثم لا يكادون ينطقون ببعض الكلم ، فيحس الناس بهم ، فيأخذ المستعد أهبته لمفارقة ما كان عليه واتباعهم حتى تشعر السياسة (نعوذ بالله منها) بما عسى أن يكون من أمرهم فتخمد أنفاسهم ، قبل أن يبلغوا من قلب أحـد ما أرادوا من غرس أفكارهم ، فينطفىء النور ، ويدلهم الديجور •

فهل يعد الأديب هذه الضربات من أيدى أرباب السـياسـة اضطهادا للعلم لاجل حماية الدين ؟ انزه كل أديب عن أن يظن ذلك ، وانما هى صدمات تقع على الدين لا تختلف عن أمثالها مما يصيبه منهم مباشرة ، فلا تعد حجة على الدين فى نظر المنصف •

المقلد دون المقلد

ربما يقول القائل : ان كان المسلمون قد أخذوا الجمود فى

التقليد والنفرة من العلم والاعتقاد بالعداوة بين الدنيا والآخرة وبين العقل والدين وما أشبه ذلك مما هم فيه ، وورثوه عن الأمم السابقة عليهم خصوصا أقرب الملل اليهم • فما بالهم لم يقلدوا المسيحيين في الحرص على نشر دينهم ، والتوسع في علومه مذيلاً بما أخذوه عنهم ، ولم يقسموا أنفسهم قسمين كما قسم المسيحيون اخوانهم قسمين : قسما ينقطع الى الآخرة في الاديار والصوامع ، وقسما يشتغل بالدنيا ليقيت نفسه ويقيت أهل القسم الأول ، ويحمي نفسه ويحميهم من العدوان ؟ ومالك ترى المسلمين خملوا وارتخت أعصابهم وسئموا النظر في علوم دينهم كما ذكرت ، ثم صاروا أبعد الناس عن معرفة الطرق لتحصيل الغنى والثروة ، والقبض على ناصية القوة وصولجان العزة ؟ وطرحوا أنفسهم في تيار من القدر كما يقولون ، يجري بهم الى حيث لا يعلمون ؟ ثم هم مع ذلك أحرص الناس على حياة ، وأشدهم لهفا على الحطام ، فلا ترى الجمهور منهم في شيء للدين ولا للدنيا فما هذا التناقض ؟

فأقول له : انك قد نسيت أن المقلد يكون دائما أحط حالا وأخس منزلة من المقلد • فالمقلد انما ينظر من عمل المقلد الى ظاهره ولا يدري سره ولا مابني عليه • فهو يعمل على غير نظام ، ويأخذ الأمر لا على قاعدة ، ولذلك سقط المسلمون في شر مما كان عليه مقلدوهم ، لا سيما انهم قد خلطوا في التقليد وأضافوا الى دينهم مالا يمكن أن يتفق معه ، فصاروا في مثل حال المتخبط الذي تتنازعه عدة قوى يذهب مع كل منها آنا ثم ينتهي أمره بعد الخيبة بالتعب الشديد ، فيستلقي الى أن يستريح ، فينهض الى العمل على هدى أو يموت •

لما كان المسلمون علماء كانت لهم عينان : عين تنظر الى الدنيا والأخرى تنظر الى الآخرة ، فلما طفقوا يقلدون أغمضوا احدى العينين ، واقذوا الأخرى بما هو أجنبي عنهم ، ففقدوا المطلبين ، ولن يجدوهما الا بفتح ما أغمضوا ، وتطهير ما اقذوا •

الاصلاح والمسلمون

للقائل ان يقول : كيف تدعي أن دعاة العلم والدين قليل بين المسلمين مع أننا نسمع أصواتهم تتلاقى فى جو مصر وسورية وغيرهما من البلاد فى هذه الأيام ؟ كل يقول : ديني ملتي ، اسلام مسلمون ، قرآن سنة ، مجد الاسلام القديم ، سلفه الصالحون ، تعلم ، تعليم ، كتب قديمة كتب جديدة ، وما يشاكل ذلك مما يظهر منه أن الداعين الى العلم أو المنبهين الى الأخذ بأصول الدين الاسلامي كثيرون ، ولا نرى مع ذلك من أغلب المسلمين الا آذانا صما وأعينا عميا ، وصدا عما يدعو اليه هؤلاء ؟

ويمكنني ان أقول له : ان الصادق في هؤلاء ليس بكثير عده ، والجمهور منهم قلما يخلص قصده ، وما تجد أكثرهم الا متجرين بهذه الكلمات ، لكسب بعض دريهمات ، ويظهر لك ذلك من انهم يلفظون هذه الاسماء وقلما يدرسون شيئا من مدلولاتها ليقفوا على الحقيقة منه ، وانما يلقف بعضهم عن بعض ظواهر كالزبد لا تمكث في الأرض • وأما الصادقون على قلتهم فقد بدأ بعض الناس يسمعون ما يقولون ، ويطلبون الرشاد مما يعلمون ، خصوصا فى أمر الدين والجمع بينه وبين مصالح الدنيا ، ولا سيما فى بلاد الهند وبين مسلمي روسيا • ولكن الاصلاح ليس ريحا تهب فتمسح الأرض من الشرق الى الغرب في وقت قريب فانتظر •

قد يقول القائل : لم لم يكثر هؤلاء كثرتهم بين الأوربيين فيما مضى ، حتى يغلبوا الظالمين من أهل السياسة ويستميلوا العادلين منهم اليهم ، وينهضوا بالمسلمين من هذه الرقدة التي طال أمدها عليهم ؟ ولم لا يزال أهل البصيرة منهم قليلين متفرقين يهمسون بالقول ولا يجهرون ، وليس للعلم فيهم دعاة عمليون ؟ أليس ذلك سبيلا لمؤاخذة الاسلام وحجة عليه ؟

وأقول له : ان حظ المسلمين لا يصح أن يكون أسعد من حظ مقلديهم ، بل المنتظر أن يكون أتعس ، وقد اقامت المسيحية ما يزيد على الف سنة قبل أن يظهر فيها العلم ، أو تنشأ الحرية الشخصية ، أو تسرى فيها الحركة العلمية ، الى ما فيه صلاح الجمعية الانسانية ، مع توالى المنبهات ، وتواصل الصدمات اثر الصدمات ، ولم يمض على المسلمين من يوم استحكمت فيهم البدعة ، وأطبقت عليهم ظلم المحدثات ، ودخلوا جحر الضب الذى دخله من كان قبلهم الا اقل من ثمانمائة سنة ، فلم يمض عليهم وهم فى بدعهم الجديد ، ذلك الزمن الذى قد يكون عمرا لمثل هذه الحالة ، ثم تقضى نحبها فى آخره ● وما اظن أن يمر على المسلمين مثل تلك المدة قبل أن يبلغوا من صلاح الدين والدنيا ماهم أهل له ●

الفرق بين التعصبين

وعلى كل حال لا يجوز فى شريعة الانصاف أن يذكر المسلمون فى جانب جمهور المسيحيين اذا ذكر الغلو فى التعصب الدينى فضلا عن أن يقال أن المسلمين أشد افراطا فيه ● والشاهد يدلنا على انه قد يكون للمسلمين فى التعصب ألفاظ وكلمات ، ولكن الذى يكون من جمهور المسيحيين انما هو أعمال وضربات فى المعاملات ، وما على طالب الحقيقة الا ان يسيح بفكره فى مثل المستعمرات الهولاندية فى الشرق ● ومملكة الترنسفال قبل سقوطها ، وبلاد الناتال فى الجنوب، ثم يرجع الى بعض بلاد الروسيا فى الشمال من قبل عشرين سنة ، ثم يرجع الى الجزائر وما يليها فى جهة الغرب ، ليعلم كيف تكون الشدة فى المعاملة مع غير أهل المذاهب المسـيحية ، وكيف يبلغ التعصب من أهله حدا تنظر اليهم فيه الانسانية شزرا ، ولا تقبل لهم فيه المدنية عذرا ●

ما على الباحث الا أن ينظر فيما يكتبه الكتاب الفرنسيون ليعلم أنهم فى حيرة من أمرهم مع المسلمين ، يريدون أن تكون لحكومتهم طمانينة فيما ملكت من بلاد المسلمين ولكن حكومتهم لا تجد السبيل اليها مع ما اتخذته قاعدة لعملها وهو الشدة والافراط فى القسوة على المسلمين خاصة وحدهم دون سواهم ، وأرباب الاقلام يبحثون عن تلك الطمانينة مع المحافظة على تلك القســـوة ، ويأبى الله أن على ما يبحثون عنه ، لانهم يطلبون الجمع بين الضدين فى موضوع واحد وهو محال كما يقرره فلاسفتهم (١) ٠

---

(١) آخر ما استقر عليه رأيهم وشرعت دولتهم فى تنفيذه هو اخراج المسلمين من دينهم ولغتهم (العربية) بكل ما يمكن من وسائل العلم والتعليم والاكراه والاجبار وعدم تمكينهم مع ذلك من تعلم العلوم الطبيعية والاجتماعية والقانونية لئلا يطالبوا بالاستقلال الوطنى او المالى ، وقد حدث فى الماضى أن أكرهوا سلطان المغرب على توقيع مرسوم يخول الحكومة الفرنسية الحامية له تنفيذ ذلك فى شعب البربر ، فانشات لهم قانونا بربريا بعيدا عن الشريعة الاسلامية بعد الكفر عن الايمان فى الأحكام الزوجية والارث وغير ذلك ، ومدارس تعلمهم بها دين النصرانية باللغة الفرنسية ، واللغة البربرية بالحروف اللاتينية ، وتحرم عليهم تعلم اللغة العربية والديانة الاسلامية ، حتى اذا ما تم لها اخراج البربر من الاسلام أكرهت العرب على ذلك ومن أبى تطرده من البلاد ٠ وأما ايطالية الكاثوليكية الموالية للبابا فقد حاولت حين احتلالها ليبيا استئصال المسلمين من قطر طرابلس الغرب وبرقة وجعل بقايا أطفالهم ايطاليين كاثوليكيين بالقوة القاهرة تنكيلا وتقتيلا !! (والله أشد تنكيلا) وفى الجزائر وتونس فرضت اللغة الفرنسية على الأهالى ، وحرمت التعليم باللغة العربية ، وحاربت المدارس الأهلية الاسلامية ، واضـــطهدت علماء المسلمين حتى هاجر الكثيرون من بلادهم الى مصر وسورية ٠

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

مكتبة الأسرة

بسعر رمزي جنيه واحد
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب